إميلـــي بشـــــــارات

تراجيديا راهبة بثوبورديّ

لا يهدف هذا السرد إلى تقديم سيرة حياة رائدة الحركة النسائية الأردنية المحامية إميلي بشارات كاملة، بقدر ما هو محاولة إلى إلقاء بعض الضوء على بعض تجربتها الإنسانية والمهنية، وهذه المحاولة هي مقتطفات من جهد بدأته قبل سنوات من رحيلها بهدف التوصل إلى ما يمكّن من كتابة سيرتها كاملة، إلا أنه لاقى وما زال صعوبات، أبرزها صمتها واعتكافها في حياتها، وحجب وثائقها، وتحديداً ما كتبته بقلمها هي، من مذكرات ويوميات بعد وفاتها، لأنتهي إلى أن ما أقدمه الآن هو قراءة وفي أحاديث بعض أقاربها وصديقاتها، وقراءة في بعض وثائقها وكتاباتها، وأخيراً قراءة لموجودات شقتها المتواضعة من مكتبة وأثاث ومقتنيات شخصية.

سؤال التاريخ:

كثيراً ما أرقتني أسئلة التاريخ. وبخاصة عندما عملت في المكتبة الوطنية الأردنية (مقر ذاكرة الوطن الأردني) إذ أصدم كل صباح بصور كثيرة لرجال تركوا بصماتهم بطريقة أو بأخرى على زمن الوطن. أو أجول على رفوف المكتبة وملفات وثائقها لأقرأ ما يؤرخ لهذا الوطن لأتساءل- وقد تساءل غيري كثيرات وكثيرون- ما هو التاريخ؟ كيف يكتب؟ ومن يكتبه؟ من هم الجديرون بالدخول في هذا التاريخ لتحفظ ذكراهم؟ من يختارهم؟ وربما وعلى نحو أدق، هل التاريخ – أي تاريخ- هو ما نقرأه في الكتب الرسمية، تاريخ الحكام والسادة الرجال والسلطات؟ أم هو تاريخ الناس والمجتمعات؟ وارتباطاً بهذا النص، ألا يوجد في تاريخ بلادي، ناسها وأحداثها نساء تركن بصماتهن على وجه زمن الوطن؟

أسئلة كثيرة أخرى قد تبدو ساذجة، لكنها مشروعة وهذه المشروعية دفعت كثيرات غيري، ومن قبلي، ليتبنيّن شعار "إعادة النساء إلى التاريخ". وأولهن على المستوى العربي الرائدة الراحلة زينب فواز، التي سبقت رافعات هذا الشعار في الغرب.

إذن هي محاولة ناجمة عن قلق سؤال وجود النساء، قلق الخوف من نكرانهن، وقلق القدرة على التعبير عن العرفان للراحلة الرائدة، ذلك كلّه شكل دوافعي لكتابة سيرة حياة إميلي بشارات. لذلك أعلن ابتداءً أنني لا أدعي الحياد وأنا أنقب عن تفاصيل حياة هذه السيدة، فلها عليّ شخصياً وعلى الأردنيات، فضل فتح الأبواب أمام انطلاقتهن للفضاء العام. وكنت آمل أن أتمكن من كتابة سيرة حياتها قبل رحيلها، ليكون جهدي المتواضع أمام ما قدمته، تأكيداً عملياً لما كنت أحاول إيصاله لها عبر مكالمتنا الهاتفية، من احترام لتجربتها واعتراف بفضلها، لكنها اختارت الرحيل الصامت بعد اعتكاف قارب الربع قرن، وحيدة إلا من رفقة ابنة اختها عبلة التي

رعتها دائما، وسيدة اختيرت لمساعدتها، وسط احتفالات ميلاد يسوع المسيح سنة ٢٠٠٤، وكأنها في اعتكافها الطويل ورحيلها الهادئ أرادت وضع اللمسات الأخيرة على تراجيديا حياة امرأة أرادت إختراق سكون مجتمع قبلي، بتحريك بركة حياة النساء الراكدة، وتحويلها إلى نهر جارف ذرّاته نساء ينطلقن في الحياة وإليها.

عبقرية المكان:

أتساءل حول مفارقة الجهل بتاريخ الناس والأمكنة في بلادي. ومن هذه المفارقة جهلي الشخصي بتاريخ الأستاذة إميلي بشارات وبخاصة أنني تطوعت للعمل في الاتحاد النسائي في الأردن– وهو الاتحاد الذي أسسته الأستاذة سنة ١٩٥٢ وأعادت تأسيسه سنة ١٩٧٤ – بعد مغادرتها لهذا الاتحاد واعتزالها العمل العام، ومن جوانب هذه المفارقة، أنني وبعد اعتزالي– أيضا– العمل التطوعي العام في الاتحاد وغيره من المنظمات النقابية والسياسية، وقصر جهودي على البحث والتأليف، إلى جانب وظيفة متواضعة سمح لي بإشغالها في وزارة الثقافة. كنت كثيراً ما أتساءل، وأنا أكسر رتابة العمل الوظيفي بتأمل المكان، عن أصحاب هذه الفيلا التي شغلتها وزارة الثقافة في ذلك الوقت، وعن مستوى الذوق الرفيع والأصالة لأصحابها فانعكس على فن عمارة هذا البناء، الذي ظل بالرغم من فوضى ساكنيه، ويد الزمن والتخريب الذي طالته، محتفظاً بأناقته الأصيلة وجماله البسيط.

كان ضحىً عمانياً رقيقاً، وكنت قد تعبت من رتابة العمل الحكومي، ورفض الأستاذة مقابلتي للحديث عن تاريخها وتاريخ الحركة النسائية الأردنية. فحاولت إشغال نفسي بتأمل شجرة الغار العتيقة التي كثيراً ما يختلط عطر أوراقها بعطر بقايا عريشة ياسمين في صباحات جبل اللويبدة النديّة، في ذلك الضحى مرت كطيف، واختفت بسرعة في عربة مستأجرة، ومضت. لأتنبه أنا إلى ضحكات زميلات يتندرن بالسيدة العجوز، التي خرجت للتو من مكتب معالي السيد الوزير مهددة بمقاضاة الوزارة لتخريبها البناء، ومطالبة بإخلائه. لأعرف في ذلك الضحى أن هذه السيدة العجوز التي اخترقت عطر الياسمين العتيق ومرت كطيف هي الأستاذة إميلي بشارات.

كانت تلك المرة الوحيدة التي أشاهدها، بل الأصح أشاهد ظهرها وهي تدلف إلى العربة المستأجرة لتختفي في أزقة جبل اللويبدة. لن أتحدث عن حجم الإحساس بالتقصير تجاه هذه السيدة وتجاه تاريخ النساء، وأنا أحاول شرح مكانة هذه السيدة ودورها المؤثر في أوضاع النساء

للزميلات المتندرات، وهن يتطلعن إليّ ببله مستغربات حماستي وحنقي. تركتهن مضيت في الجبل لأبحث عن منزلها الآخر بعد أن أفادوني أنه قريب جداً.

جبل اللويبدة العتيق ومساكن كثيرة لآل البشارات، بعضها عتيق، وبعضها تم ترميمه وإعادة رونق الماضي إلى حجارته الوردية. أمضي في أزقة الجبل وسط البيوت التي خرجت من رحم الوادي الكبير المظلل بجبال عمان السبعة–وسط المدينة– لتستقر على حواف التلال الجديدة، أرستقراطية قديمة وجدت في أرض الجبل الخصبة ضالتها، فبنت مساكنها على مساطبه لتشكل حيّ سكني قديم، تفوح منه رائحة عراقة طبقة ناشئة ساعدت بساطة التركيبة الاقتصادية– الاجتماعية، ونزاهة تكوين ثروتها في ذلك الوقت، على بساطة التعبير عن ثروتها ومكانتها الاجتماعية. فنبتت مساكنها على شكل بيوت حجرية جميلة تكاد تختفي وسط أشجار السرو والفاكهة ومعرشات الياسمين والورد.

معظم هذه البيوت التي ضمت بين جنباتها أبناء العائلات الارستقراطية القديمة تشهد اليوم وللمفارقة معظم الحراك الثقافي والسياسي في البلاد. فعلى الجبل ذاته، تستقر مقرات غالبية المؤسسات الثقافية وبعض السياسية. فمنزل إميلي بشارات ذاته هو مقر مديرية المسرح والفنون وفي حديقته بني أول مسرح في الأردن "مسرح أسامة المشيني"، وقبالة المنزل مقر نقابة الفنانين الأردنيين. وفي الشارع الذي سكنته بعد مغادرتها لتسكن شقة صغيرة مستأجرة، مقر رابطة الفنانين التشكيليين. وعلى بعد خطوات مقر رابطة الكتاب. وفي الشارع الموازي مقر الجمعية الأردنية لمكافحة الصهيونية. وفي طرف الجبل وعلى امتداد الشارع ذاته مقر دارة الفنون.

وفي الطرف مقر المعهد الدولي لتضامن النساء، ومقر المكتبة التي سميت باسمها. مكتبة إميلي بشارات للحقوق والقانون وقضايا المرأة والمجتمع المدني.

ومن تجلّيات هذا المكان، أن تتجاور على جنباته العائلات المسيحية والمسلمة، وأن يضم أول الكنائس والمساجد وأن يسكنه قادة سياسيون ومفكرون وكتاب ومنهم المفكر القومي الراحل د. منيف الرزاز وابنه الروائي الراحل مؤنس الرزاز، وأمين عام الحزب الشيوعي سابقاً وحزب الشغّيلة حالياً د. يعقوب زيادين وزوجته الناشطة النسويّة سلوى زيادين. فضلاً عن نفر من الأدباء والفنانين والسياسيين والصحفيين منهم الراحل د. عبد الرحمن شقير والروائي الراحل عبد الرحمن منيف.

ويطرح السؤال هل هي صدفة عابثة أن يبني الجبل أرستقراطية عمان القديمة وجلهم من آل بشارات. ليتحول بعد ذلك الجبل العتيق إلى جبل الثقافة والسياسة، أطرح السؤال ولا أهتدي

إلى شقة الأستاذة إميلي بشارات. تستمر محاولاتي لمقابلتها، ويستمر هاتفها بالصمت، إلى أن رحلت سنة ٢٠٠٤ لألتقي بما تبقى من أنفاسها الهادئة في شقتها الخالية وأنا أحاول جمع ما تركت لنا في وصيتها من مكتبة ومقتنيات وبقايا أرشيف وكتابات.

الوصية: الخاتمة طريق البداية

من قلب فراغ الموت تؤكد إميلي بشارات استمرارية عطائها. فقد تركت وصية تقضي بتوزيع ممتلكاتها على المؤسسات الخيرية الراعية للأيتام وكنيسة البشارات التي بناها عمها، شرط أن تقوم الكنيسة بتأسيس مؤسسة لرعاية الأيتام باسم سلطي باشا البشارات، فضلاً عن بعض المؤسسات الأكاديمية والطبيّة. وتقدر مجموع المبالغ النقدية الموصى بها بما يزيد عن نصف مليون ديناراً أردنياً [١]، أما نصيب المعهد الدولي لتضامن النساء فقد كان، من وجهة نظري، لا يقدّر بثمن. كان مقتنياتها الشخصية من كتب وأثاث وملابس وتذكارات. والسؤال لماذا؟

ربما تكمن في إجابة هذا السؤال بالتقاط أول خيوط التراجيديا في سيرة حياة الأستاذة والتي بدأت من ولادتها في مدينة السلط سنة ١٩١٣ لسيد من قبيلة مسيحية كبيرة، سلطي باشا البشارات. التي تعود بأصولها إلى مدينة السلط القريبة من عمان العاصمة، والتي كانت حاضرة الأردن الأولى إلى عهد الإمارة، وقد عرفت هذه القبيلة بثرائها الواسع وملكيتها لمساحات شاسعة من الأراضي الزراعية الخصبة، فضلاً عن تعلم أفرادها وإنفتاحهم على العالم، من خلال تعرّفهم على الغرب واشتغالهم بمهن غير تقليدية نسبة إلى طبيعة العشائر الأردنية في بدايات القرن الماضي. ومع ذلك كلّه، حافظت هذه العائلة على التزامها بالعادات والأعراف العربية وبخاصة ما يتعلق بالنساء.

عرف عن سلطي باشا البشارات والد إميلي، ما يعرف عن سادة القبائل عادة من طيب نفس وجود وسماحة وصرامة في آن، فضلاً عن النفوذ الواسع لدى السلطات الحاكمة في العهدين العثماني أولاً والملكي الأردني ثانياً.

أما في ما يتعلق بنساء العائلة فقد عرف عنه التعصب الشديد، ولا أظنه في ذلك خارج على سياق زمنه. وقد تجاوز هذا التعصب ليقبل بتعليم إميلي صغرى بناته الثلاث وبخاصة أنه لم يرزق بالإبن الذكر، فوجد في الابنة الصغرى التي أظهرت ومنذ وقت مبكر ذكاءً وقاداً

وشخصية متميزة ضالته، فقبل بسفرها إلى رام الله في فلسطين لتلقي العلم في مدرسة الفرندز في رعاية الكنيسة ثم إكمالها التعلم في الكلية السورية البريطانية في بيروت. وكان ذلك أقصى ما يمكن أن يسمح به الشيخ الجليل. وعنه تقول إميلي في إحدى مقابلاتها الصحفيّة: "كانت أمنيتي منذ الصغر أن أصبح محاميّة الأمر الذي عارضه والدي بشدة لمناهضته للمهنة والتعليم المختلط، لقد نشأت في بيئة محافظة جداً ، والدتي محجبة، ووالدي – زعيم العائلة– الحاكم المطلق، كلمته حكم قطعي غير قابل للاستئناف ولا التمييز ".(٢)

لم يكن التعليم المحدود والاشتغال بالتدريس حلم الشابة المتوقدة ذكاء، التي أخذت عن الباشا الحكمة والصرامة والطموح، فضلاً عن الجود والكرم والرغبة بمساعدة الآخرين، فلجأت إلى العمل الخيري التطوعي، وأسست سنة ١٩٤٥ جمعية الاتحاد النسائي الأردني لكن هذه الجمعية لم تعمّر طويلاً كما مارست الكتابة عبر الصحف المحلية الصادرة في عمان وشغلت موقع محررة القسم النسائي في مجلة الرائد التي صدرت في عمان أربعينيّات القرن الماضي واستطاعت بدماثة خلقها وثقافتها الواسعة اكتساب ثقة الآخرين، وبدأ نجمها بالسطوع كناشطة اجتماعية ومثقفة بما لفت الأنظار إليها. هذه الشخصية اللامعة لم تقنع الباشا بأحقية البنات في الأردن وإدارة ثروة العائلة، حتى وإن كان بينهن واحدة كإميلي فأقدم – كما يقدم كثيرون غيره– على منح أملاكه من العقارات والأراضي الخصبة الشاسعة إلى أبناء اخوته الذكور، تاركاً لنساء العائلة ومنهن إميلي الجزء اليسير.

الانقلاب

من اللافت في شقة إميلي بشارات المتواضعة، غرفة جلوسها حيث الموقد القديم، تتصدر جدران صورتها برداء وردي موشح بالأسود، تضيء وجهها ابتسامة لطيفة وتحت الصورة وعلى الموقد تمثال متوسط الحجم للثائر الروسي لينين. وعلى الجدار المقابل وبالتوازي إطاران أنيقان أولهما يضم صورة شيخ جليل متجهم والآخر صك منح الباشوية للشيخ سلطي البشارات والد إميلي.

ربما يشكل هذا التنسيق مدخلاً لقراءة التحول الدراماتيكي الأساسي في حياة إميلي. ففي مطلع الخمسينيات ومع انطلاقة المد القومي مع ثورة يوليو/تموز في مصر بدأت القوى السياسية اليسارية والقومية بالانتعاش والتوسع، وقد رأت هذه القوى في الناشطة الشابة المستقلة فكرياً

وسياسياً وحاملة الوعي الديمقراطي العروبي العام شخصية يجدر استقطابها، عزز ذلك، ما أظهرته أنشطتها في مرحلة الأربعينيات من اهتمام بالشأن السياسي العام وتحديداً القضية الفلسطينية، التي عبرت عنها بسلسلة من الكتابات في الصحف المحلية، فضلاً عن سلسلة من اللقاءات والمحاضرات أجرتها مع الجالية العربية في أميركاومع مطلع الخمسينيات، تأسيسها لأول مركز لرعاية وتعليم الأيتام في الأردن، إذ أقيم هذا الميتم في قاعة بنيت من الخشب ومعدن الزينكو لاستقبال أيتام اللاجئين الفلسطينيين، ثم توسّع برعايتها وإدارتها ليستوعب ٢٠٠ طفلاً يتيماً سنوياً. وظلت ترعى هذا الميتم عن قرب وعن بعد حتى سنة ١٩٦٥، [٣] إذ تم الاستيلاء عليه وأصبح معروفاً الآن باسم "مبرة أم الحسين". من جهة أخرى ساعدت التحولات السياسية الرسمية والتي تمثلت بحركة تعريب الجيش الأردني وإلغاء المعاهدة الأردنية البريطانية، على إظهار حراك سياسي واسع، سهل للنساء مهمة الانخراط بالعمل السياسي العلني وذلك أدى إلى التركيز على إميلي بشارات كشخصية مثقفة ديمقراطية مستقلة مقبولة لدى جميع القوى السياسية واستقطابها لأجل العمل على تأسيس حركة نسائية ديمقراطية.

وبالفعل قامت إميلي بشارات بتأسيس الاتحاد النسائي الأردني عام ١٩٥٤ وكان شعاره "حقوق ومسؤوليات متساوية وحدة عربية كاملة"[٤] وعمل معها في هذه المنظمة نخبة من المعلمات والمثقفات الناشطات سياسياً واجتماعياً منهن لمعة الرزاز وإميلي نفاع وسلوى زيادين وغيرهن من ناشطات الأحزاب القومية واليسارية فضلاً عن سيدات مستقلات سياسياً منهن وداد بولص، سلوى الدجاني، فريدة السعد، وفريدة غنما وسميحة المجالي وزها منكو. إلا أن هذا الاتحاد لم يعمر طويلاً، إذ تم حلّه مع الانقلاب الحكومي على مبدأ مشاركة الأحزاب والقوى السياسية القومية واليسارية، والذي كان من نتائجه حلّ الأحزاب السياسية والنقابات العمالية والمهنية وغير ذلك من المنظمات الشعبية كافة بما في ذلك المنظمات النسائية.

لقد شكل هذا الاتحاد نقلة نوعية في نشاط إميلي بشارات العام، فضلاً عن العمل النسائي بشكل عام، إذ انتقلت به ومن خلاله من ممارسة العمل التطوعي الخيري إلى فكرة العمل الحقوقي المطلبي التوعوي. وقد كان لهذه النقلة العميقة في بدايات إميلي بشارات التي تمظهرت في كتابتها الأولى، إلا أن نشاطها في الاتحاد أضفى على تطور فكرها الاجتماعي والسياسي طابعاً واضحاً ومباشراً. فعلى سبيل المثال نقرأ في أهداف هذا الاتحاد:

"١- مكافحة الأمية بشتى الوسائل ورفع مستوى المرأة أدبياً واجتماعياً واقتصادياً وإعدادها إعداداً صحياً لتمارس حقوقها الكاملة كمواطنة.

٢- تنمية أواصر الصداقة والتفاهم بين النساء العربيات ونساء العالم من أجل المساهمة بتحسين أوضاع الوطن في شتى المجالات الحيوية وتوثيق عرى السلام العالمي"(٥).

وقد تمت ترجمة هذه الأهداف إلى سلسلة من البرامج والأنشطة التثقيفية والمهنية والمطلبية، فعلى صعيد المطالب تم العمل من أجل تحقيق المساواة القانونية في قوانين الأحوال الشخصية والعمل. ومن المنجزات التي سجلت نتيجة هذه الأنشطة أن تم سنة ١٩٥٥ تعديل قانون الانتخاب بمنح النساء المتعلمات تعليماً ابتدائياً حق الانتخاب، لكن إميلي بشارات وجدت في هذا التعديل انتقاصاً من حقوق النساء الأميات فرتبت مذكرة ذيّلت بمئات البصمات للنساء الأميات يطالبن بالمساواة أسوة بالرجال الأميين الذين يحق لهم الانتخاب والترشيح.

فضلاً عن الأنشطة المطلبية، عملت إميلي بشارات على تكثيف برامج التعليم والتوعية، فشهد الاتحاد دروساً مكثفة لمحو الأمية والإسعافات الأولية وأصول الخياطة، واللغات، كما عملت أيضاً على استمرار الدور الخيري برعاية حاجات النساء الفقيرات من خلال برامج توزيع الغذاء والملابس والحليب والصابون على الأسر الفقيرة والأطفال، وكان ذلك في طلع كل شهر من شهور السنة.

ويلحظ من قراءة تجربة هذا الاتحاد مواءمته بين الأنشطة السياسية والمطلبية الحقوقية وأنشطة التمكين الذاتي والأنشطة الخيرية الرعويّة. وفي ذلك فهم دقيق لطبيعة المرحلة والاحتياجات الحقيقية للنساء في إطار مجتمع ينمو نمواً متسارعاً في الجوانب المادية للتطور الاجتماعي. في الوقت الذي يحافظ على سكونه الثقافي والاجتماعي العام.(٦)

في هذه المرحلة أيضاً، وعلى المستوى الشخصي، أقدمت إميلي بشارات على إنهاء خطبتها التي تمت بترتيب عائلي وتحت ضغط والدها، محتجة بالفوارق الثقافية والفكرية بينها وبين من تم اختياره لها، وغيّرت مهنتها فعملت مع منظمة أمريكية وأسست أول مدرسة للتمريض في الأردن عام ١٩٥٣ (٧).

وفي هذه المرحلة أيضاً توفي والدها الشيخ سلطي باشا البشارات فغادرت البلاد لتحقق حلمها بدراسة القانون، معتمدة بذلك على دخلها الشخصي وما حققته من وفر نتيجة عملها المتواصل في التعليم وإدارة مدرسة التمريض لتعود سنة ١٩٦١ وقد حصلت على دبلوم في القانون من كلية متروبوليتان في سانت اروليانز/ بريطانيا وبكالوريوس حقوق LL.B من جامعة

لندن. وبانتسابها إلى نقابة المحامين في العام ذاته، سجلت كأول محامية امرأة بتاريخ الأردن، ولتنتخب ولدورتين متتاليتين لعضوية مجلس نقابة المحامين الأردنيين (٨)، وبذلك تكون – مرة أخرى– أول امرأة تصل إلى أعلى سلطة قيادية في النقابة التي اشتهرت بدورها السياسي المهم في الحياة الأردنية، وأغلب الظن أنها كانت السيدة الوحيدة التي وصلت إلى هذا الموقع حتى يومنا هذا.

مارست إميلي بشارات المحاماة بنجاح مما أهلها لتؤدي دوراً نقابياً وحقوقياً محلياً وإقليمياً وعالمياً. فأصبحت عضواً في اتحاد المحاميات الدولي، ومثلت نقابة المحامين في أغلبية مؤتمراته وكانت أيضاً عضواً في اتحاد المحامين العرب الذي انتدبها غير مرة لتمثيله في المؤتمرات العربية والعالمية الحقوقية والمتعلقة بحقوق النساء.(٩)

ومنذ ذلك التاريخ، بداية الستينيات، وحتى اعتزالها العمل المهني والنقابي والنسائي في سنة ١٩٧٦، ظلت تمارس مختلف الأنشطة المطلبية المتعلقة بتعديلات قانونية لصالح المساواة في القوانين الأردنية، ذلك فضلاً عن دفاعها المباشر عن حقوق النساء وبخاصة الفقيرات من خلال مئات القضايا إبان ممارستها المحاماة.

بعد عودتها من انجلترا لم تستسلم إميلي بشارات لأحكام الطوارئ التي حظرت العمل الحزبي والمطلبي العام وأدّت إلى حل اتحاد المرأة الأردنية وغيره من المنظمات ذات الطابع الحقوقي المطلبي، فعملت باستمرار على إعادة تأسيس منظمة نسائية مطلبية. ففي شهر تشرين أول من سنة ١٩٦٧ تقدمت ومعها لفيف من السيدات من بينهن نمرة طنوس وفيروز سعد وسميحة الخالدي وسهام العامري وسعاد الحسني وإميلي نفاع، بطلب إلى وزارة الشؤون الاجتماعية لتأسيس جمعية باسم "اتحاد المرأة العربية" لغاية تنسيق وتنظيم العمل النسائي في ظروف ما بعد الهزيمة، بعد تدفق أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين إلى الأردن، وبينهم العديد من النساء اللواتي أصبحت بلا معيل، إلا أن الوزارة رفضت هذا الطلب لأسباب تتعلق بالأمن العام (١٠). ويذكر أنها عملت بجد لدى الجامعة العربية لاعتماد يوم ٢١ آذار عيداً للأم(١١).

استمرت محاولات إميلي بشارات لإعادة الحياة للحركة النسائية المطلبيّة ومع إقرار عام ١٩٧٥ عاماً دولياً للمرأة، نجحت في إعادة تأسيس جمعية الاتحاد النسائي في الأردن على الأسس ذاتها التي قام عليها الاتحاد ١٩٥٤، وبمشاركة القوى السياسية ذاتها. وكانت أهدافه:

"١- رفع مستوى المرأة ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً.
٢- تحقيق ممارسة المرأة لحقوقها الكاملة كمواطنة وعاملة وربة أسرة
٣- تحسين أواصر الصداقة والتعاون مع الاتحادات والجمعيات النسائية العربية والدولية.
٤- تمثيل المرأة في الأردن في المؤتمرات العربية والعالمية.
٥- دعم التضامن العربي في المجالات الاجتماعية والتربوية والثقافية والاقتصادية والمساهمة الفعالة في بناء الوطن العربي في شتى الميادين الحيوية"(١٢).

ثقافتها، فكرها السياسي والاجتماعي

في شقتها الصغيرة تجاور غرفة نومها غرفة خصصتها للمكتبة والعمل، ثلاثة جدران مغطاة بأرفف الكتب والجدار الوحيد الفارغ مزين بصورتها برداء المحاماة وشهاداتها العلمية، وعلى المكتب آلة طابعة قديمة، وعلاقة ملابس علقت عليها حقيبة أوراقها.

عناوين كتبتها تنبئ عن سيدة ذات ثقافة واسعة ومتنوعة. فإلى جانب كتب القانون العديدة ثمة مجموعات من المؤلفات السياسية والأدبية والاجتماعية وباللغتين العربية والإنجليزية. ذلك كله انعكس في كتابتها وأنشطتها، ففي مراجعة كتاباتها كثيراً ما تستشهد بمقتبسات لمفكرين وسياسيين كثر، كما تظهر كتاباتها وعياً سياسياً مبكرا، إذ انتبهت لأهمية القضية الفلسطينية وخطورة الصهيونية وقضية الوحدة العربية إذ قالت في مداخلتها أمام المؤتمر النسائي العربي الذي عقد في القاهرة سنة ١٩٤٤ "إن قضية فلسطين هي قضيتنا، وإننا ندرك ما للوحدة العربية من أثر في جمع شملنا عند العرب"(١٣). يؤكد ذلك ما نشر عن دعوتها إلى أميركا للمشاركة في المؤتمر النسائي العالمي سنة ١٩٤٦ للبحث عن وسائل مساعدة الحركة النسائية للأمم المتحدة، فاحتجت على عدم دعوة ممثلة عن فلسطين، إذ جاء في خبر الدعوة أن إميلي بشارات على اتصال بزميلاتها العربيات للتداول في أمر تلبية الدعوة ولضمان دعوة ممثلة عن فلسطين أو الاعتذار عن المشاركة في المؤتمر. وعندما غادرت للمشاركة بهذا المؤتمر عقدت سلسلة من اللقاءات مع مندوبات الدول المشاركة، فضلاً عن سلسلة من المحاضرات واللقاء مع أبناء الجالية العربية هناك. ومن كلمة لها لأبناء الجالية العربية لدعوة هؤلاء لمناصرة القضية الفلسطينية بالقول: "أيها الأخوة الأحبة إن وطنكم الذي حملت إليكم أمنية، ألا تسمعونه، يناديكم من بعيد لتساهموا مع الذين هم في حومته في الشرق لإنقاذه. وليس الأطلنطي ليمنع نجدة العربي لأخيه

العربي إذا ما أحاق به الضيق، وتكالبت عليه قوى الشر..."[١٤] كما دعت في محاضرات أخرى إلى ضرورة توضيح دور النفوذ الأنجلو أمريكي المتأثر بالنفوذ الصهيوني في التلاعب بالحقوق العربية في فلسطين، من خلال التحايل القانوني وتجاهل الحقوق الطبيعية للفلسطينيين وإهمالها، وضرورة كشف واستنكار الدور البريطاني في قمع ثورة ١٩٣٦ وكشف الادعاءات الصهيونية حول حق اليهود في فلسطين[١٥].

والمفارقة في حياة إميلي بشارات السياسية إن اختلافها مع بعض القوى الفلسطينية العاملة في الأردن والممثلة في جمعية الاتحاد النسائي في الأردن سنة ١٩٧٦ هو الذي جعلها تستقيل من الاتحاد لتعتكف في منزلها. إذ أهانتها ممثلة إحدى هذه المنظمات الناشطة من خلال الاتحاد وبشكل علني باتهامها "بالإقطاعيّة المتخلفة" [١٦]، وذلك حسب بعض الروايات، ويمكن فهم هذا الموقف في إطار الصراع المحموم على قيادة الاتحاد بين ممثلات المنظمات الفلسطينية وممثلات اليسار الأردني (الحزب الشيوعي) وهذا الصراع اختبرته بنفسي عندما انضممت إلى الاتحاد وانتخبت لعضوية هيئته الإدارية سنة ١٩٧٩، وكان معروفاً أن إميلي بشارات كانت الأقرب فكرياً وسياسياً إلى الشيوعي منها إلى هذه المنظمة.

وبالعودة إلى فكر إميلي بشارات السياسي يمكن الإشارة إلى ميلها المبكر للفكر الاشتراكي الذي عزز بقراءات مكثفة في الفكر الماركسي تكتب سنة ١٩٤٦ حول علاقة الفرد والمجتمع،[١٧] وركزت في أنشطتها على قضية الاستقلال الاقتصادي، ومحاربة الفقر، فضلاً عن علاقتها الوطيدة باليسار الأردني. كذلك أدركت ومنذ وقت مبكر أهمية التضامن العربي والوحدة العربية إذ جاء في كلمة لها في تكريم الأميرة زين الشرف (الملكة الوالدة لاحقاً) ونشرتها مجلة الرائد "لنحيي سوريا ولبنان وروح البطولة الخالدة والتضحية السامية في الدفاع عن الحق والكرامة والحرية والاستقلال... فنحن وإن خلقنا أقطاراً، أمة واحدة تربطنا وحدة الدم واللغة ووحدة الغاية فلنتكاتف معاً ولنغرس في قلوب أطفالنا أن البلاد العربية الشقيقة هي قلبنا النابض وتراثنا الخالد وفخرنا المقدس الذي تتجه إليه في جهادنا الوطني لبناء الوحدة العربية"[١٨]. ومن خلال اهتمامها بالأطفال تكتب عن أهمية التربية الوطنية والقومية وعن دور اللغة العربية والتراث العربي الأصيل في هذه التربية وتنتقد ضعف التربية القومية وتسمية الأطفال بأسماء أجنبية فتقول "لنلقّن أطفالنا أنشودة الوطن الغالي ولنعلمهم أغاني قومهم ولنجعلهم يفاخروا بمجد العرب وعز العرب وتاريخ العرب.. أجل لقنوا الطفل أنه عربي ابن عربي، وعربي قبل كل اعتبار"[١٩]. ولفتتت في المقال ذاته إلى أسبقية الانتماء القومي على الانتماء الديني، كما تلفت إلى ضرورة نبذ التعصب

الأعمى لكل ما هو عربي. وتدعو إلى الانفتاح على الآخر والعمل على تمازج الثقافات والاستفادة من المنجزات الفكرية والعلمية لدى الغرب.

هذا الوعي القومي، وجد تعبيرات أخرى في العديد من الأنشطة اللاحقة ومنذ الخمسينيات التي عكست تقارباً مع التجربة الناصرية، وتمثلت بالعديد من البرقيات لجمال عبد الناصر، بمناسبات عدة منها تأميم قناة السويس، ثم سلسلة الأنشطة التي قادتها في الاتحاد النسائي للتضامن مع الشعب المصري إبان العدوان الثلاثي، ومنها برقية إلى السكرتير العام في الأمم المتحدة تطالبه بفرض عقوبات على المحتلين وطرد إسرائيل من قطاع غزة، كذلك قادت حملة تدريب النساء على الإسعافات الأولية واستخدام السلاح.

وبعد الانقلاب الحكومي وإعلان الأحكام العرفية تابعت إميلي بشارات كنقابية حقوقية أنشطتها السياسية كمستقلة جزئياً من خلال العديد من أنشطة التضامن مع المعتقلين السياسيين والقضية الفلسطينية والقضايا العربية عموماً.[٢٠]

أما فكرها الاجتماعي النسوي فقد شهد تطوراً ملحوظاً فكما سبقت الإشادة بذات إميلي بشارات نشاطها العمل بالعمل الخيري الرعوية لكنها امتلكت وعياً مبكراً بقضية النساء فركزت على قضية تعليم الفتيات وكررت المطالبة بإلزامية التعليم، وانتقدت النظام التعليمي والمناهج التعليمية والتمييز ضد النساء في التعليم وأسس قبول الطالبات، كما انتقدت اتخاذ التعلّم زينة بهدف تحسين فرص زواج الفتاة [٢١].

وقد سبق التوضيح كيف عكست أهداف المنظمات النسائية التي أسستها تطور هذا الوعي فبعد التركيز على العمل الخيري التطوعي تتجه أهداف الاتحادان اللاحقان اتحاد سنة ١٩٥٤ واتحاد سنة ١٩٧٤ نحو قضايا مطلبية وحقوقية فضلاً عن قضية التعليم وتوفير فرص العمل ورفع المستوى الاقتصادي للنساء. ثم قضية التضامن العربي وقضية السلام العالمي.

أما فكرها النسوي فيتجلى في كتاباتها حول علاقة الرجال بالنساء لكنها لا توقع باسمها الصريح إذ تستعمل توقيع (بنت الأردن). ففي العدد الأول من مجلة الرائد وبعنوان "أيها الرجال فإن الأمر جد" تكتب "إن عقل المرأة هو عقل الرجل من وجهة النظر الفسيولوجية، لأنها تقدر على إنتاج العمل الذي ينتجه الرجل لو أتيحت لها الفرصة المناسبة، وإن كان هناك بعض التفاوت من حيث القوة والضعف، ومن حيث الثبات والتذبذب، والباعث لفكر الرجل هو الشجاعة

والحزم في خلقه، والقاتل لفكر المرأة هو الخجل والتردد في خلقها كذلك[٢٢]. وفي مقال آخر تلفت إلى حساسية الموضوع ومخاوفها من ردود الفعل الاجتماعية والعائلية لكنها تؤكد أنها "تعبّر عن غاية سامية وبعبارة عادلة ونفس قوية" ومن هذه المقدمة الذكية تحلل هذه العلاقة لتكشف أنها تقوم على أساس سلطة الرجل وسيادته المطلقة، لتؤكد "أن المرأة ليست متاعاً للرجل" ثم تلفت دور النساء أنفسهن في تأكيد سيادة الرجل وتشير إلى دور الأم في استمرار التمييز بين الطفل والطفلة ابتداءً من الحزن على ولادة الأنثى ومروراً بتوجه الفتاة لخدمة أخيها الذكر والانصياع إلى أوامر وانتهاءً بقبول سلطة الرجل وسيادتها عليها. كما تستعرض مجموعة السلوكيات التي يمارسها كلاً من الرجال والنساء والتي تحافظ على استمرار العلاقة غير المتكافئة بين الجنسين لتنتهي إلى تأكيد خطورة أدوار النساء وأهميتها بما يتطلب العناية بصحتهن وثقافتهن ومظهرهن – وتعليم الأم كيف "توجه ميول السيادة لدى الطفل إلى مسارب الرجولة الحقة"[٢٣].

الإنسان الأنثى

سبقت الإشارة إلى أنني لم ألتقِ بالراحلة إميلي بشارات شخصياً. بالرغم من محاولاتي المضنية، ووسيلة الاتصال بها كانت عبر الهاتف، أذكر مكالمتنا الأولى وكانت سنة ١٩٨٥. بعد نشر كتابي "مقدمات حول قضية النساء والحركة النسائية في الأردن"، اتصلت بها لأزورها لإهدائها الكتاب، كان قد وصلها وقرأته. بلطف أعطتني بعض الملاحظات واعتذرت عن اللقاء، يومها أخبرتني أنها أخذت على نفسها عهداً أن لا تلتقي بأحد من ناشطات الحركة النسائية، ورفضت توضيح السبب. بعد فترة فوجئت برسالة منها تتضمن إلى جانب ملاحظاتها على الكتاب، وثائق تضيف إلى المعلومات الواردة به، ومن أهم هذه الوثائق رسالة بتوقيع هدى شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي المصري لدعوة الاتحاد النسائي الأردني ورئيسته إميلي بشارات عضو المؤتمر النسائي العربي العام الذي انعقد في لبنان سنة ١٩٤٥ لمناقشة دستور الاتحاد النسائي العربي العام الذي تشكل في مؤتمر سابق عقد في القاهرة عام ١٩٤٤ بعضوية منظمات نسائية من مصر وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين، فضلاً عن صورة من مقالة لها بعنوان "هدى شعراوي كما عرفتها" نشر في مجلة الرائد بعد ذلك تواصلت مكالماتنا الهاتفية واستمر رفضها المهذب للقاء أو لحضور حفلات التكريم التي أعدت لها من قبل بعض المنظمات والناشطات النسويات، واستمرت علاقتنا على هذه الحال حتى سنة ١٩٩٧، بعد ذلك كان الرفض يأتي عبر "نجمة" مرافقتها التي كانت تحتج بنوم الآنسة أو مرضها. إلى أن رحلت سنة ٢٠٠٤، لألقى ما تبقى من أنفاسها الهادئة في شقتها الصغيرة بعد وفاتها بأيام، وكان سبب اللقاء تصوير شقتها كما تركتها، واستلام ما تبرعت به للمعهد الدولي من مقتنياتها. وكان المعهد الدولي لتضامن

النساء قد قرر إنشاء قاعة متحفية لمكتبتها ومقتنياتها بعد أن كرمها في حياتها بإطلاق اسمها على إحدى قاعات مركز مصادر المعلومات حول المرأة باسم "مكتبة إميلي بشارات للقانون وحقوق النساء".

دخلت الشقة وبرفقتي طاقم التصوير التلفزيوني والسيدة لينا قورة المديرة التنفيذية للمعهد، وعبلة بشارات ابنة أختها ورفيقتها الدائمة، وكنت أتساءل في سري، ماذا لو زرتها هكذا وبدون اتصال هل ستطردني مثلاً..؟ واجهتني صورتها المبتسمة ذات الرداء الوردي الموشح بالأسود، أدركت أنها لم تكن لتفعل، لكنها بالتأكيد لن تتكلم. فواحدة بمثل رقتها وصرامتها لن تتراجع عن قرار اتخذته.

تجولت في المنزل غرفة الجلوس، صالون الاستقبال، المكتبة، ذوق رفيع يعبر عن شخصية هادئة متواضعة، تعتز بتاريخها، إذ تتوزع وفي أرجاء المنزل ما يشير إلى نشاط هذه المرأة وتاريخها، صورة هنا مع فالنتينا تريشكوفا، تمثال لينين المقابل لصورة والدها. رفوف صغيرة صفت عليها الهدايا والتذكارات التي جمعتها من زياراتها للعديد من الدول. مكتبتها الغنيّة بمئات المراجع القانونية وكتب الأدب والسياسة، تساءلت أين هي المرأة في هذا المكان؟ كانت غرفة نومها أصغر غرف الشقة يتوزع أثاثها البسيط بملاصقة الجدران ويتوسطها فراغ ضيق، على يمين الغرفة سرير صغير إلى جانبه دولاب احتوى أشيائها الصغيرة وأدويتها، وعلى سطحه القرآن والإنجيل باللغة الإنجليزية، وعلى الحائط فوق السرير صورة العشاء الأخير للسيد المسيح، وصورة القديس جرجس يقتل التنين. يقابل السرير دولاب الزينة وعلى سطحه صفت أدوات الاستعمال الشخصي وأدوات زينة متواضعة، وعلى الجدار الأخير خزانة الملابس.

مرة أخرى ما هي طبيعة المرأة في هذا المكان الخاص؟! ملابس أنيقة هادئة الألوان كانت تستعملها للعمل، ثوب سهرة وحيد، وثوب شعبي من تراث مدينة السلط. وثوب صيني يبدو أنه هدية. وكل ثوب يقابله حذاء وحقيبة مناسبة. أما ملابس النوم فهي بسيطة وتشبه ملابس فتاة محافظة في الثانوية العامة. والحضور الوحيد للرجل في هذه الزاوية الحميمة صورتان للسيد المسيح والقديس جرجس.

إذاً البساطة والمحافظة هما الطابعان الغالبان على المقتنيات الشخصية وأمام هذين الطابعين هل يجوز السؤال عن الرجل في حياتها.

سبقت الإشارة إلى أنها ارتبطت ولفترة قصيرة بخطبة تم ترتيبها من قبل الأب، ويبدو أنها لم تكن مقتنعة بهذا الترتيب فسارعت إلى إلغائه عند توفر الظرف المناسب واحتجت بالفارق الفكري بينها وبين من فرض عليها. غير هذه الرواية لم أجد أحداً يشير إلى ارتباطها برجل، ومن المعلوم أنها توفت عن عمر يناهز التسعين عاماً دون زواج، فهل يعقل أنها عاشت من دون أي ارتباط عاطفي؟ أو لماذا تخلو شقتها من أية صورة لرجل، زميل أو صديق او زعيم، وما دلالة صور الوالد، السيد المسيح، والقديس جرجس، وهل يجوز البحث خارج الدلالات العامة لهذه الصور؟! ما هو موقفها من الحب والزواج؟

أطرح هذه الأسئلة على عبلة بشارات ابنة أختها ورفيقتها الدائمة، وعلى إميلي نفاع الصديقة المشتركة التي استمرت بالاتصال المباشر بها. تفيدان بأنها لم تتطرق إلى الموضوع يوماً وأن لا أحد تجرأ على سؤالها عن هذا الموضوع. وتروي إميلي نفاع حادثة تتلخص بأنها كانت في مقابلة مع عدد من أعضاء مجلس النواب بشأن رفع مذكرة لإجراء بعض التعديلات القانونية، ففاجأها أحدهم بالقول "اذهبي وابحثي لك عن عريس أفضل" وتكمل إميلي نفاع، أن هذه الملاحظة أغضبتها وآلمتها، فحقيقة أنها ردت الرد المناسب الذي أحرج سعادة النائب، إلا أنها وبعد مغادرتها لمجلس النواب لم تستطع إخفاء ألمها من ذلك "التعليق السمج" حسب كما وصفته هي لإميلي نفاع.لتنتهي إميلي محاولة إجابتها على هذه الأسئلة بالقول أنها كانت مثالية أخلاقياً وبالمعنى الإيجابي لمفهوم الأخلاق. لم تكن متزمتة لكنها فهمت حقوق النساء في إطار السياق الطبيعي لتطور المجتمع، فلم تقفز في مطالبها قفزات خطرة تسيئ لقضية النساء أكثر مما تخدمهن، لذلك كان تركيزها على أولويات مثل حقوق التعليم والعمل والصحة [٢٤].

وتوضح إميلي بشارات بذاتها بعض جوانب طبيعتها الأخلاقية في مقالة لها بعنوان ابتسمي وقعتها باسم (بنت الأردن)، مقالة تكشف الكثير من جوانب شخصيتها المتسامحة ففي الوقت الذي تؤكد على ضرورة عدم الاستسلام لأمر الواقع "ابتسمي كلما أجبرك القوم على ما لا تطيقين، لكن إياك أن تستسلمي لغير مشيئة الله، قاومي الظلم وعاندي الطغيان ولا تخافي اتهامك بالتطرف والعصيان" تؤكد مرة أخرى على ضرورة التسامح فتقول ابتسمي إذا شتمك عدو أو شافهك برفض عنيد، لان الابتسامة تغطي نار الحقد والعبوس يزيد في إضرامها.."

وإذا ربطنا ذلك كله بخلفيتها المسيحية الطهرانية وثقافتها الاشتراكية وفي إطار السياق الاجتماعي السائد، ومستوى تأثرها بشخصية والدها وطبيعة علاقتها به تمكننا من فهم طبيعة شخصيتها التي يلتقي بها تسامح السيد المسيح في العشاء الأخير، وصلابة مار جرجس في

مقاومته للشر. وحكمة الأب في إدارة زعامته السياسية والاجتماعية، وأخيراً اختياراتها الشخصية الواعية لنوع ثقافتها وطبيعة أنشطتها والتي تمثلت في نزعتها الاشتراكية الواضحة التي ظلت تؤكدها حتى اللحظة الأخيرة في حياتها. عندما تركت ثروتها لمؤسسات أكاديمية وطبية فضلاً عن مؤسسات رعاية الأيتام القائمة. أما الأنثى فيبدو لي أنها غُيبت تماماً، وما ظهر منها، هي الأم التي استطاعت الاستعاضة عن ولادتها الشخصية بولادتها لمئات الأيتام الذين رعتهم منذ عام ١٩٥١ عندما أسست أول مركز لإيواء الأيتام ورعايتهم في الأردن إلى أن رحلت تاركة لهم مبالغ محترمة كفيلة بتأسيس مؤسسة تحمل اسم والدها "سلطي باشا البشارات".

الرحيل الصامت

البحث في حياة هذه السيدة يثير من الأسئلة أكثر ما يجيب، فما تركته لنا يحكي قصة حياتها العامة. وكأنها تريد أن تقول بعد رحيلها، أنها اندغمت كلياً بالعام حتى فقدت الخاص، حقيقة أنها انجزت الكثير فعبرت عن ذاتها كتابة وعملاً اجتماعياً ونضالياً، فاحتجت على وضع المجتمع بأسره، وعلى تخلف الأمة وهزائمها. فناصرت قضاياها. كما احتجت على وضع النساء، وعملت لأجلهن وناصرت قضيتهن، انتقدت مجتمعها قولاً وكتابة وعملاً لكنها لم تتمرد عليه تمرداً مجانياً، ولم تكشف حقائق عيشها الخاص كلها، تحايلت على ظلاميته وقسوته وتخلفه بالصمت تارة، والاختفاء وراء الأسماء المستعارة تارة أخرى. لا لجبن، بل لأنها فهمت مستوى التطور الاجتماعي فرتبت أولوياتها حتى تحقق لذاتها وللنساء من المكاسب ما يمكنهن في النهاية قطع أكبر مسافة من الطريق نحو الحرية، تجاوزت العوائق المادية بالجهد الدؤوب، بالتعلم والتثقف والعمل الجاد، أحنت رأسها للعاصفة لترفعها قوية بعد عبورها، ولسان حالها عنوان مقالة كتبته "ابتسمي" ومع ذلك لا يمكن القول أنها لم تخسر الكثير، ولم تظلم فالسيدة التي نشطت وناضلت لمدة تزيد عن الثلث قرن، اعتكفت صامتة لمدة تزيد أيضاً عن ربع قرن. السؤال لماذا، رحلت وحملت أسبابها معها. حقيقة أنها تركت مذكرات تحمل عنوان "حكايتي في بلدي ومكافأتي" والمذكرات بعهدة ابنة شقيقتها حتى الآن، إذ عبرت في هذه النصوص عن حجم الغبن والإقصاء وعدم التقدير والإجحاف بحقها من الأطراف المعنية، إذ تقول في هذه المذكرات وكما تشهد إميلي نفاع: "عندما أقيم مسيرتي التطوعية الخيرية والوطنية أجد نضالي وجهودي طيلة سنوات عمري ذهبت مع الريح"، وفي فقرة أخرى تقول "إنني لا أعجب لأسباب هذه الهجمة الشرسة، والحرب النفسية الانتقامية الموجهة ضدي وأنا التي وهبت نفسي وصحتي وأعصابي لوطني في شتى الميادين..." (٢٥).

وأنا بدوري أستطيع المصادقة على كلام الرائدة الراحلة. فكما أشرت في بداية هذا النص، التحقت بالاتحاد النسائي في الأردن سنة ١٩٧٩، أي بعد مغادرتها بثلاث سنوات. ولم أسمع اسمها قبل ذلك التاريخ ولا طيلة فترة عملي في الاتحاد بالرغم من كون معظم كوادره وقياداته وحتى فترة متقدمة من زميلاتها اللواتي عملن معها. كما لم أسمع اسمها من أي شخصية من القوى النسائية والرجالية الناشطة في المجالين السياسي والنقابي. واكتشفتها بالصدفة عندما بدأت بالإعداد لكتابي الأول "مقدمات حول قضية النساء." يومها سلمتني السيدة سلوى زيادين مشكورة جزءً من أرشيفها الصحفي، لأجد بعض أنشطتها في قصاصات صحف الخمسينيات وبدأت البحث، أسئلة كثيرة ولا من مجيب. وأذكر ردود فعل بعض من سألتهن عنها وقبل رحيلها من ناشطات الحركة النسائية، كانت تشبه رد فعل من يقابل عقرب أو ثعبان قاتل.

وإذا ربطت هذه التجربة الشخصية، بعدم وجود ما يشير إلى ريادتها وجهودها في وثائق الحركة النسائية الأردنية الرسمية، أو وثائق ما أصبح يعرف "بمبرة أم الحسين"، وهو الميتم الذي أسسته سنة ١٩٥١ وأدارته ورعته حتى سنة ١٩٦٥، والملاحظات السمجة من نوع "اذهبي وابحثي لك عن عريس"، والتجاهل من قبل الحركة السياسية والثقافية عامة وبخاصة نقابة المحامين، والاتهام المجاني من قبل بعض القوى اليسارية بخاصة من نوع "الاقطاعية" وغير ذلك الكثير أستطيع تفهم سبب اعتكافها. وإذا ربطت ذلك كله أيضاً بطبيعة شخصيتها وأخلاقها من جهة أخرى استطيع تفهم سبب صمتها في حياتها، وتركها الإجابة لمن يريد أن يعرف عبر مذكراتها بعد وفاتها.

لأنتهي إلى القول أنني عملت جاهدة على البحث في سيرة حياة هذه الرائدة فلم أجد الكثير مما يسعفني، وأعلم أن هناك الكثير من أرشيفها فضلاً عن مذكراتها وصورها لدى بعض أقاربها القريبين، وكلي أمل أن أتمكن من الوصول إلى ذلك كله من أجل كتابة سيرة حياة الرائدة الراحلة كاملة.

المصادر:

[١] مقابلات مع عبلة بشارات في تواريخ ٢٠٠٥/٢/٦، ٢٠٠٥/٣/١٧ أيضاً مقابلة مع فائق بشارات بتاريخ ٢٠٠٥/٣/١٧.

[٢] فيحاء عبد الهادي إميلي بشارات: أول محامية في الأردن (مقابلة) جريدة الأخبار (عمان-الأردن) تاريخ العدد ٧٥/١١/٢٠ السنة الحادية عشرة.

[٣] محرر مجلة الهدى، دعاية عربية مجدية في الولايات المتحدة: الآنسة إميلي بشارات تؤدي رسالة المرأة العربية. مجلة الهدى. مكان العدد مجهول.رقم العدد مجهول، ١٩٤٧ ص١٥. [صورة لصفحة المجلة من أرشيف إميلي بشارات].

[٤] السيرة الذاتية: مصدر سابق.

[٥] جريدة فلسطين، عمان، رقم العدد مجهول. تاريخ العدد ٥٦/٢/٩ [صورة من أرشيف السيدة سلوى زيادين].

[٦] التل: سهير، مقدمات حول قضية المرأة والحركة النسائية في الأردن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص١٢٥-١٣٠.

[٧] مقابلات عبلة بشارات : مصدر سابق.

[٨] السيرة الذاتية المختصرة، مصدر سابق، أيضاً مداخلة شفهية للمحامية أسمى خضر في الندوة الفكرية لإميلي بشارات تاريخ ٢٠٠٥/٢/٧. شريط فيديو مسجل.

[٩] السيرة الذاتية المختصرة، مصدر سابق، أيضاً مداخلة شفهية للمحامية أسمى خضر في الندوة الفكرية لإميلي بشارات تاريخ ٢٠٠٥/٢/٧. شريط فيديو مسجل.

[١٠] كتاب مدير الشؤون الاجتماعية والعمل تاريخ ١٩٦٧/١٢/٢٥ رقم ش/٢٧٢٨/٥/٢.

[١١] فريد حنا بشارات: كلمة في تأبينها.

[١٢] جمعية الاتحاد النسائي في الأردن، النظام الأساسي، ص٥

[١٣] محرر مجلة الرائد المؤتمر النسائي العالمي يوجه الدعوة الأردنية، مجلة الرائد (عمان) عدد ٤ تاريخ ٢٣ حزيران ١٩٤٦، ص١٣

[١٤] محرر جريدة السمير، رسولة شرقي الأردن في نيويورك، جريدة السمير، نيويورك، العدد مهول، تاريخ ١٩٤٦، صورة من أرشيف إميلي بشارات.

[١٥] محرر مجلة الهدى، دعاية عربية مجديّة في الولايات المتحدة: الآنسة إميلي بشارات تؤدي رسالة المرأة العربية، مجلة الهدى "عمان" رقم العدد مجهول، سنة ١٩٤٧، ص١٥ صورة من أرشيف إميلي بشارات.

[١٦] مقابلة هاتفية مع إميلي نفاع بتاريخ ٢٠٠٥/١٢/١٢.

[١٧] بشارات، إميلي، من المسؤول، مجلة الرائد (عمان) العدد ٦، تاريخ ٦ آب ١٩٤٥، ص١٠.

[١٨] محرر مجلة الرائد، من كلمة الآنسة إميلي بشارات، مجلة الرائد ، عمان. العدد ١، ٢٠ حزيران ١٩٤٥، ص٥.

[١٩] بشارات، إميلي، أعدوا أطفالنا إعداداً وطنياً، مجلة الرائد (عمان)، العدد ٦ ، ٦ آب ١٩٤٥

[٢٠] نفاع (إميلي)، البعد السياسي في حياة إميلي بشارات، ورقة مقدمة إلى ندوة فكرية تكريماً لإميلي بشارات، ٢٠٠٥/٢/٧، المعهد الدولي للتضامن مع النساء.

[٢١] بشارات (إميلي) متعلمة أو غير متعلمة ومشاكل، مجلة الرائد، عمان، العدد ٢٥، ٢٧ تموز ١٩٤٦، ص١٤.

[٢٢] بنت الأردن، أيها الرجال فإن الأمر جد مجلة الرائد ، عمان، العدد ١، تاريخ ٢٠حزيران ١٩٤٥، ص٣.

[٢٣] بنت الأردن، بهارج المرأة، مجلة الرائد ، عمان، العدد الأول، ٢٠ حزيران سنة ١٩٤٥، ص١٠-١١.

[٢٤] بنت الأردن، ابتسمي، مجلة الرائد، عمان، العدد ٣، الجمعة ١٣ تموز ١٩٤٥، ص١٠.

[٢٥] نفاع (إميلي) ، البعد السياسي في حياة إميلي بشارات، مصدر سابق، ص١٥.

حيوات نساء عربيات
نساء وحيدات معيلات

د.ميّة الرحبي

مقدمة:

منذ سنوات قليلة فقط بدأت مجموعة من الباحثات والباحثين في سورية، بالالتفات إلى قضية المرأة ودراسة أوضاعها، وتعالت أصوات منفردة هنا وهنالك تنادي بحقوقها. ويعود سبب التأخر هذا، برأيي، إلى التأثيرات الاجتماعية التي خلفها نظام الحكم الشمولي الذي أطبق على سورية مدة أربعين عاما، ولا زالت آثاره ممتدة حتى اليوم، فقد صادر النظام كل الفعاليات السياسية، والمجتمعية أيضا، وألغى حرية التعبير، بشكل كامل، وعاش الناس تحت وطأة قانون الطوارئ الذي يحكم سوريا حتى اليوم، وكان تأثير ذلك على صعيد المرأة، وحركة تحررها، مشابها لما أصاب جميع الفعاليات المجتمعية الأخرى من إلغاء وتعطيل.

أسس النظام الحاكم عام ١٩٦٧ الاتحاد النسائي، بمرسوم صادر عن رئاسة مجلس الوزراء، تحول مثله مثل غيره من النقابات والاتحادات إلى منظمات حكومية أو شبه حكومية نفعية مترهلة، لا غرض من وجودها سوى الإشادة بمنجزات وهمية منّت بها السلطات الحاكمة على "رعاياها"، والمشكلة أن الاتحاد النسائي لم ينجز على أرض الواقع منذ تاريخ إنشائه وحتى اليوم ما يمكن اعتباره مكسبا هاما ساهم في مجال تحرير المرأة، والدفاع عن حقوقها، وتمكينها ،أما المشكلة الأهم فهي أن السلطة الحاكمة ضيقت على الجمعيات النسائية التي كانت قائمة أصلا، وحاصرت نشاطها، فقد نص أحد أهداف الاتحاد النسائي أن يعمل على احتواء جميع الفعاليات النسائية تمهيدا لضمها إليه، ومنعت أيضا قيام جمعيات مدافعة عن حقوق المرأة أو مساهمة في تطويرها.

من ناحية أخرى فقد كانت الدراسات، التي كان من الواجب على الدولة أو على الاتحاد النسائي القيام بها، شبه معدومة، أما الاحصائيات الوطنية التي كانت تصدر سنويا فلم يكن أي منها معنيا بالقيام بإحصائيات نوعية تتعلق بالمرأة، وفي نفس الوقت كما ذكرنا حظر وجود أي جهة مدنية كان يمكن أن تقوم بهذا الدور.

وعندما أتيح منذ سنوات قليلة هامش بسيط من الحرية، تمكنت فيه بعض المهتمات والمهتمون من البدء بتوصيف وضع المرأة في سوريا، صادفتنا تلك العقبة الكأداء، من انعدام أي دراسات أواحصائيات يمكن أن تدعم أبحاثنا، وكنا مخيرين بين التخلي عن ذلك، أو البدء بدراسات متواضعة تعتمد على المشاهدة والتحليل، كأداتي بحث علمي، مع معرفتنا الأكيدة بالنقص

الأكاديمي الهام، الذي يعتري دراساتنا، بغياب الأرقام والاحصائيات عنها، وعدم إمكانية الاستناد إلى أي دراسة سابقة، يمكن أن تفيد البحث وترفع من سويته العلمية.

لعل ما سبق ينطبق تماما على دراستي المتواضعة هذه، فرغم الجهود التي بذلتها، والتي لا أستطيع القول أنها جهود كبيرة لمحدودية المصادر أصلا ، والتي اطلعت عليها بالكامل تقريبا، لم أجد أي دراسة أو إحصائية، أو رقم يمكن أن يفيدني في بحثي هذا، وكان لابد لي من الإشارة إلى ذلك في مقدمة الدراسة.

لقد لفت نظري ونظر العديد من المهتمات والمهتمين بأوضاع المرأة في سورية تزايد حالات النساء الوحيدات المعيلات، اللاتي تضطرهن الظروف (ترمل، طلاق، هجر) أن يتولين وحدهن مسؤولية إعالة أنفسهن وأولادهن، في ظل ظروف قانونية ومجتمعية، لا تؤمن أدنى درجات الحماية أو تأمين حيواتهن وحيوات أولادهن، فهذه المرحلة الانتقالية الوسيطة التي تمر بها مجتمعاتنا، سمحت للمرأة المعيلة أن تستقل بحياتها مع أولادها، بعد أن كانت القاعدة بقاءهم جميعا تحت سلطة ووصاية وحماية أحد أفراد العائلة. هذا الوضع الذي كان سائدا فيما مضى، رغم انطوائه على الكثير من الاجحاف والظلم بحق المرأة وأبنائها، إلا أنه كان الحل المجتمعي لهذه الحالات، في ظل أنظمة مجتمعية تنتمي للعادات والأعراف القبلية، تلزم عميد أي عائلة أن يؤمن مستلزمات الحياة الأساسية للأم الوحيدة وأطفالها، مقابل وصايته وتحكمه الكاملين بحياتهم. اليوم ونتيجة للتطور والشرط الاقتصادي الذي بدأ يفرض علاقات اجتماعية مختلفة، ازدادت بشكل كبير أعداد النساء الوحيدات المعيلات، مع بقاء القوانين والأنظمة المجتمعية، التي لا تؤمن للأم وأطفالها في هذه الحالة عمليا أي حق على أرض الواقع، وتعطي الوصاية لذكور العائلة، رغم انتفاء أي قوانين أو عادات اجتماعية حالية تلزمهم بتأمين مستلزمات الحياة للأم المعيلة وأبنائها، أو حتى مساعدتها في ذلك، وبقيت الأم وأولادها، محرومين من أي سند قانوني أو اجتماعي أو حتى عائلي، ويرزحون في نفس الوقت تحت وصاية وتحكم يمنحهما القانون لهذه الجهات التي تتشارك في قهرهم.

أمثلة على بعض الحالات :

- تزوجت أ.ع في الثانية عشرة من عمرها، وزفت من دمشق إلى حلب لرجل يكبرها بخمسة عشر عاما، وخلال خمسة وعشرين عاما، أنجبت خلالها سبعة أولاد، أذاقها من العذاب مالا يمكن أن تصفه أكثر أقلام الأدباء مخيلة،إذ كان يبتدع أشكالا من العنف والتعذيب والحبس والتقييد، ما يحتاج لمخيلة سادية هائلة الخصوبة، تقول أ.ع في شهادتها : وجاراتي كلهن، كن يتعرضن للضرب من قبل أزواجهن، حتى تحاشينا جميعا في لقاءاتنا الصباحية على فنجان من القهوة، نختلسها من وراء ظهور رجالنا والزمن الأغبر، أن تسأل إحدانا الأخرى عن كدمة أو

ازرقاق في وجهها أو ذراعيها أو ساقيها، وكم كان نادرا أن تكون جلساتنا تلك خالية من إصابة إحدانا.

امتدت سطوة الزوج فيما بعد لتشمل الأولاد، كان يضربهم ضربا مبرحا، مستخدما كل ما تقع يده عليه، حتى كاد يقتل أحدهم عندما خبط رأسه في الحائط وشجه، وعندما لم يمتثل الطفل لأمره بالصمت، غطس رأسه مرات متتالية في حوض الحمام دون أن تجرؤ الزوجة على الاعتراض، وذلك ما حدث عندما عاقب ابنته بكيها بأسياخ محماة على النار، و كان يطلب من زوجته أن تحضر له الأسياخ الكاوية.

لأحد يدري لم يطفح الكيل في لحظة من العمر، كانت تعد مأدبة إفطار وهجم عليها هائجا في المطبخ ليشبعها ضربا، ويسكب فوقها الطعام الحار ويقذفها به، هربت إلى الشارع ، ومن ثم إلى دمشق، وطلبت أولادها، فأرسلهم لها دون اعتراض لأنه تزوج بأخرى، ولا يريد " وجع رأس"، لكنه أصر فيما بعد على الاحتفاظ بالابنة المراهقة ذات ال١٢ ربيعا، لأنه لا يأمن أن الأم ستستطيع رعايتها وحماية شرفها، كما يقول، وفي نفس الوقت لم يطالب بالابنة ذات ال١٦ عاما، لأنها مخطوبة وستتزوج قريبا، أو بالطفلة الصغيرة ذات الخمسة أعوام. الآن أ. بصدد رفع دعوى طلاق ونفقة للأولاد، وهي تحاول العمل كمساعدة منزلية في الطبخ، لكنها لا تجد عملا كافيا، وتأبى العمل في تنظيف البيوت، حائرة في كيفية تدبير أمورها.

بدت أ.ع مترعة بالمرارة وهي تتحدث عن مشكلتها، ممتلئة بالحقد على زوجها، همها الأساسي تدبير سكن لها ولأولادها، فأمها فقيرة تسكن في بيت صغير في ضواحي دمشق، وإخوتها وأخواتها متزوجون، ولا أحد مستعد لإيوائها وإيواء أولادها، وبنفس الوقت ، هي لا تتقن أي عمل، وترفض العمل في تنظيف المنازل بعد أن كانت سيدة في منزلها كما تقول، والأفق أمامها مسدود تماما، والملاحظ أنها لم تستهجن مطالبة الأب بابنتهما الوسطى، وكأن لديها إحساس ضمني أنها غير قادرة على حمايتها، بمفهوم الشرف والأخلاق التقليديان، ولا تريد تحمل هذه المسؤولية، التي تعتبرها ربما أثقل من مسؤولية إيواء وإطعام وإكساء أولادها، حتى وهي تعرف مقدار الظلم الذي يمكن أن تتعرض له الصغيرة، في حال بقائها وحيدة تحت رحمة الأب.

- تعرفت ص.ض على زوجها أثناء دراستهما الثانوية حيث عملا معا في مسرح الهواة، وانتقلا بعد ذلك إلى العاصمة، لتدرس الصيدلة، في حين لم يتح له أن يدرس إلا في معهد مهني، مما زاد في الهوة الفاصلة بينهما، ،كانت متميزة دوما في حين كان هو في الظل دائما، يرقبها من بعيد كحلم بعيد المنال، كانت في حالة فراغ وصدمة عاطفيين عندما اقتحم وحدتها وداوى جراحها وآلامها، ولكن كان هنالك دائما، في نظرات الغرباء، وتلميحات المعارف، وتصريحات الأصدقاء، ما يذكرهما معا بالفرق الواضح بينهما. سدت أذنيها عن كل الملاحظات، وتزوجا

حال تخرجها من الجامعة، بعد أن اندمجا في الوسط الثقافي الذي كانت تمور به العاصمة، والذي كان الفكر اليساري مسيطرا عليه بوضوح.

رزقا بعد زواجهما ببنت وتحت إلحاحها عادا إلى مدينتهما، وسارت الحياة بشكل معقول إلى أن ولد طفلهما الثاني وكان صبيا رائعا عند ولادته، لكنه أصيب بحمى ، وبسبب سوء التشخيص والمعالجة، أصيب دماغيا، وتحول إلى طفل معاق، ومنذ تلك اللحظة انقلبت حياتهما جحيما، إذ عششت في رأس الزوج فكرة أن ما حدث للطفل كان انتقاما ربانيا، بسبب نمط حياتهما، وبعدهما عن دينهما، كانت مؤمنة بأفكارها العقلانية العلمانية في الصميم، ولم تكن مستعدة لتغيير أفكارها وسلوكها لمجرد أن زوجها قرر ذلك. بدأت الخلافات بينهما تتفاقم، وزاد منها إحساسه بالدونية ، والتي كان يعززها نظرات الجميع، في مدينة يعرف أهلها بعضهم بعضا جيدا، ودخلها الذي بات يفوق دخله أضعافا مضاعفة. ازدادت الأمور سوءا يوما بعد يوم، إلى أن باتت الحياة جحيما مقيما، وبدأت ثورات غضبه تزداد حدة وتواترا، وبدأت تسمع منه الشتائم البذيئة والسخرية والهزء ، الذي تطور إلى الضرب ، وخاصة بعد ولادة ابنتهما الثانية. في آخرمرة ضربها بها، اضطررت للخروج بملابس النوم هاربة من المنزل، ورفعت دعوى تفريق. كان البيت ملكها، لكنه استطاع خلال أيام بيع كل أثاث المنزل، بحيث أنه عندما اضطر لإخلاء البيت، عادت لتجده خاويا إلا من الجدران، وبدأت الرحلة المضنية لاستعادة ما فقدت والعناية بالأولاد، وخاصة الطفل المعاق، وحيدة تكافح لتأمين مستلزماتهم، والعناية بهم، في حين انقلب هو انقلابا كليا، تزوج بعد أشهر قليلة من امرأة أمية، وبدأ يتردد على المسجد، وخلال جلسات المحاكمة اتهمها أمام القضاة بالعهر والسكر والعربدة مع الرجال!!! وعندما سألها القاضي لرد الاتهام، أخبرته أنهما كانا يعيشا معا نمط حياة واحد كان الغالب عليها النزعة الفكرية اليسارية، والجلسات التي وصفها بجلسات السكر والعربدة، كانت نمط سهراتهما مع أصدقائهما، وأنها ليست مستعدة للتنكر لكل قناعاتها الفكرية لمجرد أنه قرر تغييرها، وحصلت أخيرا على الطلاق بعد جلسات منهكة مرهقة.

تزوجت ثانية من شخص متفهم، فنان تشكيلي، أنجبت منه بنتا، لكن وجود الطفل المعاق كان دوما حائلا دون علاقة سليمة بينهما، أرسلت أولادها فترة لعيشوا عند والدهم، فكانت النتيجة أن تدهور وضع الطفل المعاق، وزوج زوجها الأول ابنتهما البكر وهي بعمر ست عشرة سنة، جن جنونها يومها، وهي ترقب تلك الجريمة ترتكب بحق ابنتها دون أن تستطيع فعل أي شيء، يومها قررت أن تعيد أولادها إليها، مما خلق خلافات حادة مع زوجها الثاني، الذي بدأ يكثر من الشراب، حتى تحول إلى الإدمان، قررا الانفصال بهدوء ورقي، واحتفظا بعلاقة ودية طوال سنوات الانفصال. قبل عدة أشهر تزوجا ثانية، على أن يبقى كل في منزله، وهي تقضي الآن نهاية الأسبوع فقط مع زوجها الثاني بصحبة ابنتها منه، وترسل ولديها الآخرين عند والدهما في عطلة نهاية الأسبوع، ولازالت تعمل عشر ساعات في اليوم خارج المنزل ، وتعود لتعتني

بالمنزل والأولاد ، وخاصة ابنها المعاق ، تنظر بحسرة إليه ، وكما تقول في شهادتها: يجرح قلبها لطفه ووداعته، وتتألم لأنه يفهم ويحس بكل ما حوله ، يستمتع بالأغاني والموسيقى، ولا يتحرك إلا بصعوبة، وتتحسر، لو كان باستطاعته الرؤية فقط.. لابتدعت ألف وسيلة لتسليته، تضمه ، تقبله، وتقسم أنها ستعتني به حتى آخر يوم في عمرها مهما كان الثمن.

لعل إحساس ص.ض في لا وعيها بتفوقها على زوجها الأول، وهو مبرر ضمن المعطيات والظروف التي أحاطت بعلاقاتهما، وإحساسه بالدونية، ساهما في تردي العلاقة بينهما، كما أن ضعف شخصيته هو الذي جعلت أفكاره تتقلب مع تقلبات الأفكار السائدة، أي مع امتداد الأفكار اليسارية في سورية في السبعينات، ومن ثم الأفكار الدينية المتشددة، بعد منتصف الثمانينات، وربما كان انقلاب أفكاره من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، كان بمثابة ثورة على واقعه الشخصي في هذه العلاقة غير المتكافئة، والتي قادته إلى الضغط على زوجته ص. فالفكر الديني المتشدد هو وحده الذي يعطيه سلطة معنوية على من تتفوق عليه علميا وثقافيا واجتماعيا.

من ناحية أخرى لابد من ملاحظة أن ص. رغم تحررها، ترى في العلاقة الزوجية الشكل المقبول لوجودها الاجتماعي، وربما خوفها من البقاء وحيدة، ومن فقدها احترام المجتمع هو الذي يدفعها لاختيار الزواج شكلا وحيدا للعلاقة بالرجل، رغم قناعتها الفكرية بحقها بعلاقة حرة مع الرجل خارج إطار الزواج، وهذا ما دفعها للعودة إلى زوجها الثاني، الذي لا زال يعاني من مشكلة الإدمان، ولا يوجد لديه دخل ثابت، ويعيش فوضى حياتية عارمة، وضمن شروط علاقة زوجية غير مريحة، صحيح أنها أعطتها ربما فرصة وجود رجل في حياتها، لكنها أضافت أعباء إضافية، فوق الأعباء التي تنوء بحملها، مما يثبت بما لا يدع مجالا للشك، أن المرأة المعلية، مهما اختلفت مواصفاتها، أو شروط الحياة التي تعيشها، لا يمكن أن تخرج من شراك شبكة العنكبوت التي تنسجها الحياة حولها، في ظل الظروف الحالية.

– د . ف ممرضة تزوجت بطريقة تقليدية من رجل مناسب، أثناء حملها أصيب بحالة من الوحام، أدى إلى عدم تقبلها زوجها، وبالأخص أثناء العلاقة الجنسية، مما أدى إلى تطليقه إياها قبل أن تلد طفلهما، وزواجه مباشرة انتقاما ل"رجولته" المطعونة من امرأة أخرى، وحسب شهادة د.ف أن المسألة كانت خارجة عن إرادتها تماما، وأنها بعد ولادة ابنها استغربت الحالة التي أصابتها، وتمنت لو أنها استطاعت مقاومتها.

عاشت د.ف بعد طلاقها عند أهلها، ولم يضغط عليها الأهل كما هي العادة كي تعيد الطفل لأبيه، فقد كانت العائلة بحاجة إليها للعناية بأبويها العجوزين، وأختها المتخلفة عقليا(مصابة بالمنغولية). لم تتزوج ثانية ، وكانت الحياة أسهل عندما كانت تساعدها في البيت أختها العازبة

الموظفة المريضة بالربو. توفي الوالدان، وتفاقم مرض الربو عند الأخت، حتى أقعدها في المنزل، وهي عاجزة اليوم عن القيام بأكثر من شؤونها الخاصة، وراتبها التقاعدي لا يكاد يكفي ثمن أدويتها، وتكافح اليوم د.ف لإعالة ابنها وأختيها، وتردد بكل تسليم، أن ما حدث لها ربما حكمة إلهية كي ترعى هؤلاء الثلاثة الذين يعتمدون عليها كليا في حياتهم، خاصة أن والد طفلها، لم ير ابنه منذ سنوات، وهي وحدها المتكفلة بكل مصاريفه، وتقول: ما الفائدة من مطالبته قضائيا بحقوق ابنه، لن أحصل إلا على العذاب في المحاكم ، كي يحكم لي بمبلغ هزيل لا يكفي لشراء حذاء رياضي لابني، وهي اليوم تحاول أن تصم أذنيها عن مطالبة أخوتها الذكور بحصتهم من منزل الوالدين، رغم أنهم لا يتكفلون بأي من مصاريف اختيهما العاجزتين. رغم التسليم الذي تظهره د.ف، والرضى بواقعها، إلاّ أن المرء لا يمكن ألا يلاحظ المرارة التي تنضح من عينيها وقسمات وجهها وصوتها، حتى وهي تضحك، أثناء سردها، قصة حياتها، وواقعها، ورغم أنها لا تعاني من صعوبات مالية جمة، أي أنها تستطيع تأمين أساسيات الحياة، إلا أنها مثال صارخ على درجة امتهان المجتمع للمرأة، التي تعتبر بضاعة مستهلكة بنظره بعد طلاقها، فرغم صغر سن د.ف عند طلاقها، فقد انعدمت فرصها بحياة زوجية جديدة، خاصة أن مهنة التمريض لا تحظى للأسف في مجتمعنا بالاحترام الكافي، مما سبب باعتقادي، عائقا آخر أمام أن تعيش د. فرصة حياة مشتركة مرة ثانية.

– ح. م من قرية نائية من المحافظات الشرقية، تزوجت ابن قريتها، ورافقته إلى دمشق حيث كان متطوعا في الجيش ويخدم في دمشق، عاشت معه في إحدى المخيمات الفلسطينية، حيث البيوت ذات الأسعار الرخيصة، وأنجبت منه ثلاث بنات وأربعة أولاد، وأثناء ذلك استطاعا شراء بيت لهما في المخيم، توفي الزوج اثر مرض عضال، ووجدت نفسها فجأة وحيدة في تلك المدينة الواسعة، مع أطفالها السبعة، ضغط عليها الأهل للعودة إلى القرية، لكنها كما تقول فضلت أن تبقى وتكافح لإعالة أولادها على أن تراهم شحاذين على أبواب أعمامهم. بعد بحث مضن اهتدت إلى تجّار الجملة في سوق الحميدية ، الذين كانوا يعطونها عباءات لتطرزها يدويا، ومن التطريز، استطاعت أن تربي أولادها، وتعمر طابقا ثانيا في البيت، حيث اسكنت معها ابنيها المتزوجين، مع زوجتيهما، وطفلين رزقا بهما حديثا، بينما خرج الابن البكر من البيت بعد زواجه، زوجت ابنتيها الكبيرتين إلى أقاربهما في القرية، والآن لا زال معها في البيت ابنتها وابنها الأصغر، وكل بناتها وزوجات أولادها يساعدونها في التطريز، الذي لا زال يشكل الدخل الأساسي للعائلة الممتدة التي تعيش في المنزل، فدخول الأولاد الذكور غير كافية لأن جميع الأولاد لم ينالوا تعليما عاليا، ولا زالت الأم هي التي تدير المنزل.

هنالك اعتزاز كبير بالنفس لدى الأم، وفي الحقيقة فقد كافحت كفاحا هائلا كي تؤمن مستلزمات الحياة الأساسية لأولادها دون مساعدة من أحد، ولكن هل استطاعت أن تؤمن لهم حياة أفضل؟ ذلك السؤال الذي يطرح نفسه، فضغوط الحياة الكبيرة في العاصمة جعلت هم الأم محصورا في تأمين الطعام والكساء للأولاد، في حين لم يكتسبوا من عيشهم في العاصمة المزايا التي يمكن أن يكتسبها المرء هناك من تعلم أو معرفة أو اطلاع، فبقي أسلوب الحياة الريفية مسيطرا على حياتهم، وكأنهم لا يعيشون في العاصمة، بل في قريتهم النائية البعيدة، في انفصال تام عن الحياة المدينية، كما أن الفتيات لم يتعلمن وزوجن إلى القرية، كذلك الأبناء لم يتعلموا بالقدر الكافي، وهم يحملون آراء متخلفة(كرفض أحدهم فكرة أن تستعمل زوجته أي وسيلة لتحديد النسل)، فبقاء الأم في المدينة الكبيرة، لم ينعكس إيجابيا على حياة الأولاد، وبالتالي لم يحسنوا فرص معيشتهم، وأضافوا للمهمشين الذين يعيشون على أطراف العاصمة أرقاما جديدة.

– تزوجت المعلمة د.ح، الابنة المدللة لعائلة فنان تشكيلي معروف، من صديق أخيها بعد قصة حب عاصف، تحدت فيها إرادة الأهل، كان زوجها شابا لامعا في الجامعة، متفوقا، درس فرعين في الجامعة في آن معا، كان شاعرا وسيما تتهافت عليه المعجبات، واختارها هي من دونهن، إلا أن الفوارق الطبقية الاجتماعية هي التي كانت وراء معارضة أهلها. أنجبت منه توأما من الذكور، والتحق هو بمنحة دراسية حصل عليها لتفوقه، لاتمام دراسته العليا في إحدى الدول العربية، وبدأت أصداءعلاقاته النسائية المتكررة تصل مسامعها. لم يتابع دراسته، ونظرا لالتزامه أمام الجامعة السورية التي أوفدته، وعدم تأديته خدمة العلم، اعتبر فارا مما حال دون عودته إلى البلاد، وبقي يتنقل بين الدول العربية المختلفة، متزوجا ومطلقا العديد من النساء ، أما هي، فقد جاهدت لتربية الولدين، عملت بكد، وسافرت للعمل في السعودية، واضطرت للعمل في ظروف لم تصدق في عمرها أنها ستتعرض لها، فقد علّمت في البداية، في قرية ليس فيها ماء أو كهرباء موصولة إلى المنازل، وقد أقسمت أنها رأت بعينيها الحيّات والعقارب بالقرب من منزلها، أو ما يسمى منزلها، ومكان عملها. بعد أن نال ولداها البكالوريا، عادت إلى سورية ، وكافحت كي ينهيا دراستهما الجامعية، الآن هي في الإمارات حيث يعمل ولداها، ولا زالت إلى جانبهما تعتني بأحفادها بعد زواج الولدين من امرأتين عاملتين. وطوال تلك السنوات لم ير الولدان والدهما ولم يسمعا عنه إلا شذرات من أخبار متفرقة، فمرة سافر إلى هنا، ومرة استقر هناك، مرة تزوج ومرة طلق، أخيران شاءت الأقدار أن يلتقيا به حيث استقر أخيرا في نفس الدولة الخليجية التي استقرا مع أمهما فيها، حيث يعيش حياة بائسة فارغة، وهو الذي كان شبابه يوحي بمستقبل باهر، يعيش مع زوجته الأخيرة وابنيه منها، وهو اليوم يطالب ولديه الكبيرين بمساعدته ماديا لإعالة أخويهما الصغيرين!!!

من الغريب أن الوضع النفسي ل د. ح تردى بعد سفرها إلى الخليج مع ولديها، فرغم أن وضع زوجها السابق يدعو للشفقة، ووضع أولادها غدا ممتازا، وذلك ما يفترض أن يسعدها، ويعوضها عن تضحياتها، إلا أنها على ما يبدو كانت قد تقبلت فكرة الهجر عندما كان زوجها بعيدا عنها، في بلد آخر، لا تراه ولا تسمع أخباره، أما وجوده في نفس المدينة بجانب امرأة أخرى، فربما جعل الألم الغافي يتحرك من جديد. إن ندرة أو انعدام فر ص الزواج ثانية بالنسبة لامرأة معيلة لطفلين، وبالتالي عدم وجود الرجل في حياتها، يجعل الاحساس بالحرمان يتفاقم لدى المرأة التي تتعرض لهذه التجربة الحياتية الأليمة المجحفة بحق انسانيتها، وهو ما لايمكن لأي شيء أن يعوضه.

– في مدينة صغيرة من إحدى المحافظات السورية الشرقية، تزوجت س.ج من ابن خالها، وهي لم تكد تنهي دراستها الاعدادية، لم يستشرها أحد بأمر الزواج أو ينتظر موافقتها، فقد قررخالها كبير العائلة أن يخطبها لأصغر ابنائه، مدلل العائلة، وطارت أمها من الفرح لأن أخيها خصها بهذا الشرف، على الرغم من أن الشاب كان عاطلا عن العمل، لم يتابع دراسته ولم يستطع الالتزام بأي مهنة تعيله أو تعيل أسرته مستقبلا. تزوجا وعاشا في كنف والده، وجيه المنطقة، وبدأت قسوة الحياة تطبق بخناقها عليهما بعد وفاة الوالد، الذي لم يكن يملك ما يورثه لأبنائه العديدين سوى وجاهة معنوية، لم تعد تعني في هذه الأيام شيئا. حاول الزوج بما حصل عليه من إرث بسيط أن يباشر أعمالا عدة، وكان في كل مرة يخسر خسارة فادحة، إذ كانت مشاريعه جنونية دائما، فمرة يسافر إلى الخارج متأملا بتجارة ما، واخرى ينشئ مصنعا صغيرا خاسرا. خلال سنوات قليلة أنجبا سبعة اولاد ، وكانت وطأة الحياة تزداد بازدياد مشاريعه الخاسرة، ساعده اخوته في البداية، بعد كل خسارة، ومن ثم ملوا من ترميم خسائره اللامتناهية، حاصرته الديون والدائنون، وهو المدلل الذي تعود الحصول على ما يريد دائما، فأقدم على الانتحار بإطلاق النار على رأسه، امام أعين زوجته وأولاده. اليوم تعيش الأم مع أولادها عيشة الكفاف على المساعدات التي تأتيها من أهلها وأخوة زوجها، حيث لا مجال لديها لأي عمل في المدينة الصغيرة، وهي التي لم تتعلم ، ولايسمح لها وضعها ووضع أهلها الاجتماعي والجو المغلق للبلدة أن تعمل أي نوع من الأعمال المهنية التي لا يلزمها تأهيل علمي. الملاحظ في حالة س.ع التسليم الذي تتميز به غالبية النساء في المحافظات السورية التي يغلب عليها الطابع الريفي، وهو صفة غالبة لدى نساء الريف في سورية، فهن غالبا ما يقبلن ويستسلمن للظلم مهما كان حجمه ومداه، بقناعة داخلية كاملة بأن هذا هو قدر المرأة، ، التي لا تملك حتى حق التفكير برفضه أو الاعتراض عليه، فقد عوملت س. طوال حياتها كسلعة يتصرف بها الآخرون دون أي اعتراض أو احتجاج.

الأعباء التي تقع على الأم المعيلة:

العلاقة بالنفس والمسؤولية الثقيلة:

ما هي دوافع الأم ؟

هل هو مفهوم التضحية السائد في مجتمعاتنا هو الدافع أمام اختيار المرأة أن تكون مسؤولة ومعيلة لأطفالها رغم عدم إلزامها بذلك قانونيا؟

لاشك أن هذا المفهوم يلعب دورا أساسيا في اختيار الأم القيام بهذه المهمة، فالمجتمع ينظر بعين التقدير للمرأة، كلما نسيت ذاتها أكثر، وكرست حياتها لخدمة الآخرين، حتى بات الكثير من النساء ولا سيما الأمهات منهن، وبخاصة ممن ليس لديهن أي مجال آخر لإثبات الذات ونيل التقدير والاحترام، يتفانين في خدمة من حولهن من زوج أو ابناء أو والدين أو إخوة، وينلن بذلك اوسمة متتالية من المجتمع، يدفعن ثمنها من إنسانيتهن وحقهن في الحياة.

من ناحية أخرى، تلعب التربية الاجتماعية دورا هاما في تكريس مفهوم الاختلافات على أساس النوع الاجتماعي، والتي تكرس صفة العاطفة المستفيضة لدى المرأة، التي عليها أن تغدقها دون حساب على من حولها، كجزء هام من الشخصية الانثوية، حتى شكل هذا النوع من العاطفة محور حياة المرأة في كثير من الحالات، وتتخذ هذه العاطفة أشكالا مشوهة مريضة عندما تحتل كامل وجدان المرأة ومشاعرها، سواء توجهت نحو الرجل، أو في حال غيابه، على من حولها من أفراد الأسرة.

لكن العامل المذكور لا يشكل، رغم أهميته، الدافع الوحيد لتحمل المرأة مسؤولية الأولاد، فهنالك عامل آخر لايقل عنه أهمية، يشجع بعض النساء على الاحتفاظ بأولادهن، لأن في ذلك حماية اجتماعية لهن، تقيهن من العودة رغم أنوفهن، كخادمات لعوائلهن، ففي شهادة السيدة ح.م تقول أنها كانت موقنة، أنها لو عادت إلى بلدها لتحول أطفالها إلى خدم في بيوت أعمامهم، ولأجبرها أهلها على الزواج إما من رجل مسن، أو لديه أولاد، ولم تكن مستعدة أن ترمي بنفسها وأولادها إلى مصير مجهول، وأن تخدم أولادها أرحم بكثير من خدمة أولاد غيرها على حد تعبيرها، لذا كان بقاؤها مع أولادها في دمشق حماية لهم، قدر ما كان حماية لها، من مصير أسود، وقد دفعت الثمن من صحتها وحياتها وإنسانيتها، لكنه كما تعتقد، ليس باهظا كالثمن الذي كان يمكن أن تدفعه لو عادت إلى أهلها.

عندما تختار المرأة المعيلة أن تبقى مع أولادها وتكون مسؤولة عنهم، فإنها تتبنى خيارها الصعب هذا، رغم علمها الأكيد، أن ذلك سيقضي تقريبا على أي أمل لها في حياة طبيعية إلى جانب

رجل تبادله الحب والحياة المشتركة، وتكون قد أقدمت على السير في طريق وعر ملئ بالشوك، لمعرفتها التامة بعدم وجود أي ضمانات قانونية أو اجتماعية تحميها من العوز والفاقة، وتبدأ رحلة المعاناة لتأمين شرط اقتصادي معقول لحياة الأطفال، مما يستهلك ساعات طويلة من يومها في العمل داخل وخارج المنزل، ويسلب المرأة آخر ما تبقى لها من انسانيتها.

في غمرة تلك المعاناة تنسى المرأة نفسها وجسدها، وغالبا ما تعيش ظمأ عاطفيا، وتنتفي إمكانية إقامة علاقة جسدية تشبع حاجاتها الطبيعية، ففرص الزواج نادرة إن لم تكن معدومة، وإمكانية إقامة علاقة عاطفية تعتبر شبه مستحيلة، ، فالعوائق الدينية والأخلاقية، تجعل من الصعب على المرأة الإقدام على مثل تلك العلاقة، وحتى لو تجاوزت المرأة هذه العوائق فلن تتجاوز حاجز الخوف من النتائج، فانفضاح مثل تلك العلاقة سيدمر مستقبلها ومستقبل أطفالها، وسيعود بالنتائج الوخيمة عليهم، كما أن شروط تلك العلاقة، حتى لو حصلت بشكل نادر، ستكون غير مريحة ولا تحمل احتراما من قبل الطرف الآخر، مما سيراكم عند المرأة مشاعر الذنب واحتقار الذات، وبالتالي ستشكل مثل هذه العلاقة عبئا نفسيا مثقلا على المرأة بدل أن تمنحها راحة نفسية. وكما ذكرنا فإمكانية الزواج تكون أيضا غير متاحة، لأن الرجل غالبا ما يشترط أن تتخلى الأم عن أولادها، كي يقترن بها حتى لو كان معجبا بها، مما قاد في الحالات الموصوفة سابقا إلى بقاء المرأة وحيدة، عدا حالة ص.ض، التي تمكنت بسبب الشرط الاجتماعي– الاقتصادي أن تخرج قليلا عن الإطار العام، ولكن هل يمكننا أن نعتبر أنها استطاعت البدء بحياة جديدة بشروط معقولة؟

يعرّض الشعور بالوحدة والخلل العاطفي، الناجم عن فقدان الرجل المرأة هنا لأزمات نفسية عديدة، يضاعف منها عدم اعتبار هذه المرأة " أنثى" بالمفهوم الاجتماعي الذكوري للكلمة، فهي غير منجبة، وغالبا لا تتأنق وتتبرج بشكل لافت كما تفعل الإناث "المرغوبات"، وذلك لخوفها من أن تتهم بمحاولة إغواء الرجل، أو لانشغالها بهموم ومشاكل حياتها، لذا تفقد المرأة صفة الأنوثة المحبذة اجتماعيا، وتتحول بنظر المجتمع إلى إنسان لاجنس له، ربما ينال التقدير لتضحياته، لكنه يفقد مكانه الطبيعي في مجال العلاقات الإنسانية، وتحل نظرات الإشفاق محل نظرات الإعجاب التي غالبا ما ترضي المرأة في المجتمعات الذكورية، أي الإعجاب بها كأنثى، مما يسبب لها مشاعر الإذلال والنقص، ويعرضها لأزمات الثقة بالنفس.

وحسب دراسات عديدة فأن المرأة العاملة المعيلة ذات المسئولية الكاملة عن أسرتها هي الأكثر تعرضا للإصابة بالأمراض النفسية كالقلق واعتلال المزاج المصاحب لأعراض الإكتئاب, حيث تصاب به٢٥% من النساء المعيلات في حين لاتتجاوز نسبة إصابة الرجل المعيل ١٥%.

لقد دفع وعي ص.ض. بنفسها وتقديرها لذاتها إلى محاولة الخروج بنفسها من دوامة الظرف الصعب ، فجاهدت للحفاظ على الحدود الدنيا من إنسانيتها وحقها في الحياة، وساعدها بذلك

ظرفها الاقتصادي، فدخلها يتيح لها أن تكون مسؤولة عن مصاريف بيتها وأولادها، ولا يلزم الرجل الذي تريد الزواج منه بأية أعباء مادية، مما ساعدها على التفكير بالزواج ثانية والبدء بحياة جديدة ، لكن الظروف المحيطة بكاملها لم تكن ملائمة كي تعيش حياة طبيعية مريحة، وبالتالي لا يمكننا القول أنها استطاعت أن تنجو بروحها وجسدها من العسف الشديد الذي يقع على المرأة في هذه الحالات.

العلاقة بالأولاد:

تأخذ علاقة الأولاد بأمهم في هذه الحالة، أشكالا مختلفا، فبعضهم ينشأون على تقديرها، واحترام تضحيتها تجاههم، لذا يتعاملون معها معاملة جيدة ، قد ترقى إلى مرحلة التقديس في بعض الحالات. إلا أنه في بعض الحالات يحصل لدى الأولاد ردود فعل سلبية على نظرة المجتمع إليهم، من وجهة نظر ذكورية تعيب عليهم أنهم نتاج"تربية امرأة" ، فيسمعون ذلك التعبير كلما تعرضوا لموقف لم يتمكنوا فيه أن يثبتوا قوة وجدارة، فيتكون لديهم حقد دفين على واقعهم، يتبدى بشكل ردود أفعال قاسية مجحفة بعلاقتهم بأمهم، فيتعاملون معها وكأنها مسؤولة عن كل الظرف الذي يعيشونه، ويصبون جام غضبهم على رأسها. كذلك قد تلعب الضائقة الاقتصادية، وإحساس الأطفال بالحرمان الدائم، وعدم تمكنهم من الحصول على ما يحصل عليه اقرانهم في زيادة ذلك الحقد الدفين على واقعهم، وانعكاس ذلك على علاقتهم بأمهم بنفس الطريقة، و على علاقتهم بأخوتهم في المنزل والتي تتسم بالعدوانية في بعض الحالات. وفي بعض الأحيان، يكرس المجتمع في ذهن الابن الأكبر ما أن يكبر قليلا، بأنه مسؤول عن شرف العائلة، فيبدأ بتضييق الخناق على أخواته الإناث، بل يصل به الأمر إلى تضييق الخناق على والدته، ومحاولة منعها من الخروج من المنزل للعمل ، وهي المعيلة الوحيدة للأسرة!!!

وتختلف العلاقة بالأولاد من جهة الأم ، فأحيانا تغدق الأم عاطفة لا محدودة على الأولاد بحيث تفقد بذلك الحزم في تربيتهم وتوجيههم ، فينشأوون غير منضبطين، غير قادرين على مواجهة مصاعب الحياة، وفي أحيان أخرى تقتنع الأم بأن عليها أن تلعب دور الأب في تربية الأولاد حسب القواعد الاجتماعية السائدة في مجتمعاتنا، والتي تعتبر القسوة في التربية ، وممارسة كل أشكال العنف مباحة في سبيل تنشئة طفل مطيع مهذب، لذا تتبع الأم أساليب قاسية جدا في التربية، إن الأسلوب الديكتاتوري الذي تتفرد به الأم في قيادة الأسرة لوحدها ودون إشراك أولادها في القرارات سينعكس سلبا على الأبناء، الذين سيفقدون القدرة على اتخاذ القرارعندما يكبرون. وفي بعض الأحيان تكون الأم مرهقة جسديا ونفسيا بتأثير الأعباء المثقلة ، فتصبح العصبية والهياج صفتان مميزتان لطبيعة علاقتها بأولادها. من ناحية أخرى يترسخ في أعماق بعض

الأمهات الإحساس بالظلم القدري والاجتماعي الذي وقع عليهن، مما يخلق في أنفسهن إحساسا دائما بالظلم، ، فتكرر الأم دائما على مسامع الأولاد أنها ضحت وخسرت الكثير من أجلهم، مما يخلق عند الأطفال شعورا بالذنب.

وفي محاولة لتعويض ما افتقده الأطفال، تحاول الأم في بعض الحالات، ألا تحملهم أي مسؤولية، مما يحملها وحدها أعباء العمل داخل البيت وخارجه، و يثقل كاهلها، ويجعلها في حالة توتر وإرهاق دائمين. وعلى العكس من هذه الحالة يتحمل الأطفال الكبار في بعض الحالات مسؤولية أكبر مما يجب عليهم تحمله، فيعملون وهم صغار ويتسربون من المدارس باكرا، وفي أغلب الحالات الموصوفة – عدا حالتي الأم الصيدلانية والأم المعلمة– لم يتم الأولاد دراستهم الثانوية، وخاصة البنات منهم، اللاتي زوجن باكرا في أغلب الحالات.

العلاقة بالمجتمع:

موقف المجتمع من هذه الظاهرة:

لم تكن هذه الظاهرة مقبولة في مجتمعاتنا، في الفترات التي سادت فيها الأسر الممتدة نموذجا للخلية المجتمعية الأساسية، عندما كان العائلة الكبيرة تعيش في المدينة في بيت عربي كبير، فيه الكثير من الغرف التي يشغلها الأبناء بعد زواجهم، هم وزوجاتهم وأولادهم، وتتشارك نسوة البيت جميعا في القيام بمهامه المنزلية، والرجال في الدخل، مع بقاء السلطة بيد رأس العائلة، الأب– الجد، وبعد وفاته بيد الإبن الأكبر، وفي حال طلاق البنت أو ترملها، تعود للسكن في بيت والديها، سواء اصطحبت أولادها أم لا. وكان الأمر مشابها لذلك في الريف، إذ تعيش الأسر الممتدة إلى جوار الأرض، ويعمل جميع أفرادها فيها، مع اختلاف طفيف في العلاقات، إذ يندر أن كانت الأرملة أو المطلقة تجلب معها أولادها عند العودة إلى منزل والديها، وغالبا مايبقون في منزل جدهم لأبيهم أو عمهم، وربما يعود ذلك إلى أن المرأة كانت تزوج(أي تباع) ثانية بمهر تقبضه الأسرة. وسواء في الريف أو المدن، كان يعيب الطفل أن يربى عند أخواله، وليس أعمامه. انحسرت ظاهرة سكن المرأة بعد طلاقها، في حال احتفاظها بأولادها، لدى أبويها، بانحسار ظاهرة العائلات الممتدة، وانتقال الناس للسكن في الشقق الضيقة التي لا تتسع إلا لأسرة واحدة، بحيث باتت الأرملة أو المطلقة تشكل لوحدها عبئا على أسرتها بسبب ضيق المكان، فكيف إذا كانت بصحبة أولادها؟ وأصبحت غالبية العوائل تشترط على المطلقة أو الأرملة عدم اصطحاب أولادها معها، إذا اضطرت للعودة والسكن في بيت ذويها، وبالمقابل أصبحت تتغاضى عن سكن المطلقة أو الأرملة لوحدها، خاصة إذا كانت تريد العيش مع أولادها، ونتيجة للضائقة الاقتصادية التي طالت الغالبية العظمى من المواطنين في العقود الأخيرة، لم يعد احد

معنيا بالتكفل بمصاريف الأولاد سواء من طرف أسرة الأب، أو أسرة الأم، وخاصة في غياب نص قانوني واضح يعين المرأة المعيلة في هذه الحالات، وأصبحت المرأة هي المسؤولة وحدها عن إعالة أبنائها في حال اختيارها العيش معهم في منزل مستقل.

وهنا كما في كل مرافق الحياة الأخرى تلعب التطورات الاقتصادية دورا هاما في تبديل أنماط الحياة الاجتماعية.

تعامل المرأة المعيلة بالجفاء غالبا من قبل الأقارب، لخوفهم من أن تطلب منهم مساعدتها، أو للتهرب مما يعتبرونه واجبا عائليا، ليسوا قادرين عليه بسبب الضائقة المالية التي تعصف بالجميع، كذلك يتعامل الأقارب من موقع فوقي مع المرأة المعيلة وأولادها، لعدم وجود رجل "يحميهم" حسب المنطق الاجتماعي الذكوري. وفي نفس الوقت قد يقف الأقارب موقفا سلبيا من عمل المرأة المعيلة، خاصة إذا كان عملها لا يتناسب مع مكانتهم العائلية، وربما يمنعونها من العمل ، ويكتفون بإعطائها ما لايكفي أن تعيش هي وأولادها حياة كريمة لائقة، كما أن وصاية الأقارب، لا الأم، قانونيا على الأطفال القصّر ، يجعلهم يتحكمون أحيانا بمصائر حياتهم، كتزويج الفتيات منهم مثلا، وغالبا مالا تجد المرأة المعيلة من يقف بجانبها في حال تعرضت لمشكلة ما، خاصة إذا كانت قد اختارت الاستقلال بحياتها وحياة أولادها وطرق تربيتهم، فعند تعرضها لمشكلة ما يقتصر دور الأقارب على تحميلها المسؤولية، كي يريحوا أنفسهم من تحمل المسؤولية معها، ويرتاحوا من مشاكل إضافية، هم بغنى عنها، في خضم حياتهم الصعبة هم أنفسهم. كما قد تتعرض المرأة لنظرات الشك والريبة من قبل زوجات الأقارب الرجال الذين قد يتطوعون لمساعدتها، كونها منافسة محتملة لهن، مما يجعل الرجال يحجمون، وهي نفسها تخشى أن تطلب المساعدة منهم، كي لا تتعرض للأقاويل. ولا زالت الأرملة في الريف تتعرض لضغوط الأهل وأهل الزوج كي تتزوج من أخيه ، وذلك لاعتبارات عشائرية، فالمنطق الذكوري يحاول دائما حصر الملكية الخاصة في العائلة ، وزواج الأرملة من أخي زوجها المتوفي سيضمن بقاء ثروة القصّر محصورة في العائلة بولاية عمهم عليهم، وتعامل المرأة في هذه الحالة كأداة فقط لتحقيق مصالح العشيرة. ولا زلت أذكر منظر إحدى أولئك النساء البائسات، التي كانت دموعها تنهمربغزارة، وهي مجبرة على الزواج من أخي زوجها المتوفى، بعد ثلاث سنوات من رفضها الشديد، حرمت فيها من أولادها، بسبب رفض أهلها استقبالهم معها، وفي النهاية زفت إلى الأخ على نفس سرير الزوجية التي كان يضمها مع زوجها السابق، في أفظع امتهان لمشاعر الإنسان وكرامته.

تتعرض المرأة المعيلة، وخاصة إذا كانت غير متعلمة وتعمل في أعمال خدمية للتحرش من قبل بعض الرجال في أماكن العمل ، والذين يرون فيها أداة سهلة للتسلية والمتعة، وربما يتم الضغط

عليها بلقمة عيشها، وتضطر في كثير من الأحيان إلى تغيير أماكن العمل، أو تحمل الكثير من المضايقات.

العلاقة بالدولة ومؤسسات المجتمع المدني:

دلت الدراسات الحديثة على تزايد ظاهرة الأسرة أحادية الوالد في العالم، وأن ٧٠% منها تديرها نساء. كما أوضحت الدراسات أن ٢٠% من الأسر في مصر تعولها المرأة، و ٦٠% من مشروعات الأسر المنتجة التي يمولها الصندوق الاجتماعي تديرها سيدات؛ و نسبة النساء الريفيات اللاتي يعشن في فقر تزيد على ٥٠ % ومعظمهن معيلات لأسرهن، وللأسف لا توجد إحصائيات تعطي فكرة عن هذه الظاهرة في أغلب الدول العربية.
كما لايوجد في القوانين أو الأنظمة في أغلب الدول العربية ما يدعم أو يحمي المرأة المعيلة، فالمرأة المعيلة لا تكون وصية على أولادها من الناحية القانونية، رغم تكفلها في كثير من الأحيان بكل ما يتعلق بحياتهم ومتطلباتهم، مما يجعل العم أو الجد مثلا هو الوصي على أبناء أخيه المتوفى، وهو الذي يحق له أن يقرر مصائر حياتهم، مما يخلق إحباطا كبيرا عند المرأة المعيلة التي ترهن حياتها كلها لتربية أطفالها، دون لأن يكون لها الحق في التدخل ما يخصهم، خاصة قبل بلوغهم السن القانونية، كذلك يغبن حق المرأة المعيلة وأولادها في الإرث ويتم تقاسم تركة الوالد المتوفى معهم، في حال كون الأولاد جميعهم من الإناث، ولا يحمي القانون حقوق المرأة المطلقة، ويحرمها من أي حصة في ثروة الأسرة عند الطلاق، كما أن المبالغ التي تقر بها المحاكم في أغلب الدول العربية، كنفقة مؤقتة لها، أو دائمة لأولادها، مبالغ تافهة لاتسد رمقهم. ولاتوجد في الدول العربية بشكل عام صناديق ضمانات أو مساعدات اجتماعية يمكن أن تعين المراة المعيلة على التكفل بحياتها وحياة أولادها. ولايوجد في الأفق ما يدل على أن الوضع سيتحسن من هذه الناحية، إلا إذا استثنينا بعض المبادرات ، التي لانعرف بعد مدى جديتها وجدواها، ولعل من أبرزها، استحداث المجلس القومي للمرأة في مصر لوحدة "المرأة المعيلة" بغرض دراسة أحوال المرأة المعيلة، وتحديد احتياجاتها في نوعية المشروعات المناسبة لها ماديا وإداريا، مع متابعة وتنسيق الجهود التي تبذلها الأجهزة المعنية في هذا الشأن، وإعداد كافة التقارير اللازمة. وهنا لابد لنا أن نشير إلى قانون الضمان الاجتماعي في سلطنة عمان الصادر عام ١٩٨٤ وتعديلاته اللاحقة، والذي حرص على تغطية خمس فئات من النساء: الأرامل، والمطلقات، والمهجورات، والبنات غير المتزوجات، وأسر المساجين، وتستحق النساء في هذه الفئات راتب الضمان الاجتماعي في حالة عدم وجود عائل وفي حالة غياب مصدر كاف للرزق .

وكما ذكرنا سابقا فقد ألغت أنظمة الحكم الشمولية السائدة في أغلب الدول العربية نشاطات مؤسسات المجتمع المدني لمدة طويلة من الزمن، أو حدّت كثيرا من حركتها، مما ألغى دورها في دعم المرأة بشكل عام والمرأة المعيلة بشكل خاص، وإن كانت السنوات الأخيرة قد شهدت نشاطا ملحوظا في مؤسسات المجتمع المدني، إلا أن أغلبها اقتصر على فتح المراكز الفارغة وتلقي التمويلات الخارجية، دون أن تتمكن من التغلغل في عمق مجتمعاتها وأداء دورها في هذه المجتمعات.

آفاق المستقبل:

من الواضح تماما مدى العسف والظلم الذي تتعرض له المرأة الوحيدة المعيلة، سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية، أو النفسية، ويكرس ذلك العسف القانون الذي لا يحمي حقوق المرأة في هذه الحالات وغيرها، وكذلك حرمان المرأة من التعليم وفرص العمل، مما يجعلها في ضائقة اقتصادية تستلزم منها العمل ليل نهار لتأمين دخل معقول يقوم بأودها وأود اطفالها، كما تلعب الشروط الاجتماعية دوراهاما في حرمان المرأة من حقها في ممارسة إنسانيتها، وارتباطها بعلاقة انسانية مع رجل، يغني لديها حاجاتها الروحية والعاطفية والجسدية. كما أن فقدان المؤسسات الاجتماعية التي تساعد المرأة على القيام بأعبائها الكبيرة هذه، وغياب دور منظمات المجتمع المدني تساهم، في تحميل المرأة وحدها أعباء المصائب، التي ربما يصنعها القدر أحيانا، لكن المجتمعات الإنسانية تساهم في زيادة وطأتها.
ولتحسين أوضاع المرأة المعيلة ، لابد من تكاتف عوامل عدة، تشمل الكثير من المجالات. فحجر الأساس في تحسين أوضاع المرأة بشكل عام هو ترسيخ نصوص قانونية تحمي المرأة، وفي حالة المرأة المعيلة، تبدو الحاجة ملحة لتأمين وصايتها الكاملة على أولادها ، الذين تعيلهم، وتعديل قوانين الإرث، بما يضمن حقوق الأطفال وأمهم المعيلة، في حال وفاة الزوج، وتأمين حقوق متساوية للزوجين و تقاسم ثروة الأسرة في حالة الطلاق، ، مع إلزام الطرف غير الحاضن للأطفال، بالمساهمة مساهمة عادلة في نفقتهم، وإقرار حق الحاضن في المسكن الزوجي، وغير ذلك من القوانين، التي تحمي حقوق الأطفال وأمهم التي تعيلهم، وذلك من خلال قانون أسرة بديل، يحمي حقوق جميع أفراد الأسرة، ويلغي مواد قوانين الأحوال الشخصية الحالية، المجحفة بحق المرأة، والمتشابهة في أغلب الدول العربية. كما تبدو الحاجة ملحة لإنشاء محكمة أسرة، تنظر في جميع الدعاوى المرفوعة من قبل الأفراد لحماية حقوقهم، ويضمن ذلك حماية حقوق المرأة المعيلة وأبنائها، في ظل استقلال كامل للقضاء ونزاهته، و إنشاء صندوق للضمان الاجتماعي والمساعدات الاجتماعية يمول من قبل الدولة ودافعي الضرائب، ووضع المرأة المعيلة

في الحسبان في الموازنة العامة للدولة. ولعل في المبادرة المصرية مؤشرا يمكن اعتماده كمثال، بإنشاء صندوق للمرأة المعيلة، الذي تقدم به المجلس القومي للمرأة لمناقشته في مجلس الشعب خلال دورته البرلمانية القادمة. ومن خلال هذا الصندوق كما صرحت السيدة د. فرخندة حسن يمكن قبول التبرعات والرسوم المختلفة لوضعها به لحساب المرأة المعيلة وخدمة مشروعاتها وهو يشابه في ذلك صندوق النفقة الذي أنشئ مؤخرا باقتراح من المجلس القومي للمرأة أيضا ويتم تمويله من حصيلة رسوم الزواج وشهادات الميلاد كأحدي الوسائل الأساسية لتحقيق الرعاية والإهتمام بها، كما يعمل البرنامج للوقوف على الجهود التي تقوم بها الوزارات والأجهزة المختلفة لرعاية المرأة المعيلة، وتقدير التكلفة المالية التقديرية لكل مشروع، إضافة إلى اختيار المنظمات غير الحكومية القادرة على تنفيذ المشروعات المدرة لدخل المرأة المعيلة.

من ناحية أخرى، كان يمكن لمنظمات المجتمع المدني، لو أتيح لها الوجود والعمل بحرية أن تساهم مع الدولة ، وتشكل عامل ضغط على الحكومات لتأمين حقوق المرأة بشكل عام والمعيلة منها بشكل خاص، وكمثال على قصور دور تلك المنظمات، أنه لم يرخص في سورية خلال السنوات الخمس الأخيرة، سوى لجمعيتين تنمويتين، تعنيان بشؤون المرأة،هما الوحيدتين اليوم في سورية، في حين لم يلعب الاتحاد النسائي- المنظمة شبه الحكومية- أي دور في الدفاع عن مصالح المرأة المعيلة، أو غيرها من فئات النساء في المجتمع. مما يقود إلى نتيجة مفادها أن الدفاع عن حقوق المرأة لايمكن أن يأخذ دوره الحقيقي إلا بانخراطه في النضال الديمقراطي العام، مع الابقاء على خصوصية الحركة النسوية.

ويلعب رفع المستوى الاقتصادي للمرأة المعيلة، الذي لا يمكن أن يتم دون رفع المستوى الاقتصادي للمواطن العربي بشكل عام، وذلك بمحاربة سياسات النهب والفساد، ووضع سياسات اقتصادية حكيمة. ولا يتم ذلك إلا في ظل مناخ ديمقراطي، مع التركيز على مساعدة المرأة المعيلة بالذات عن طريق إتاحة دورات تأهيل مهنية لغير المتعلمات منهن، من قبل الدولة أو منظمات المجتمع المدني، وجعل تأمين فرص عمل من أولويات مؤسسات أو هيئات مكافحة البطالة ، التي تشرف عليها الدولة، وإعطاء الأولوية للمرأة المعيلة في الحصول على القروض الصغيرة، من قبل هيئات مكافحة البطالة، وتأهيل المرأة المعيلة لتشغيل هذه الأموال في أعمال يمكن تنفيذها في المنزل، في حال عدم تمكن المرأة المعيلة من إقامة مشاريع خارج المنزل. وتأمين فرص التحاق أطفال المرأة المعيلة في المدارس والنوادي بشكل مجاني.

إن وعي المرأة بذاتها هو الذي سيتيح لها تحسس الظلم والقهر الواقع عليها وبالتالي محاولة تغيير واقعها لا الاستسلام له، كما نرى في كثير من الحالات، وكذلك وعي الرجل بقيمة المرأة، إنسانا مساويا له في الحقوق والواجبات، وبداية ذلك يكون في الحرص على سياسات التعليم الأساسي للنساء، بإلزامية التعليم ، ومنع التسرب من المدارس، وتأمين فرص التعليم الجامعي

للنساء أو التدريب المهني التخصصي، الذي يؤمن لهن مهنة تومن لهن دخلا حياتيا مناسبا في جميع أحوال حيواتهن.

وتأتي هنا أيضا أهمية العمل على دعم المرأة المعيلة نفسيا ومعنويا، عن طريق نشر ثقافة بديلة تعيد الاعتبار الانساني والاجتماعي للنساء بشكل عام، والمرأة المعيلة بشكل خاص، كي تأخذ دورها ومكانتها الحقيقية التي تستحقها في المجتمع، بمحاربة كل أشكال العادات والتقاليد والثقافة الذكورية السائدة، وتأمين إمكانية أن تشارك المرأة المعيلة في نشاطات اجتماعية ترفيهية، تفتح لها آفاق بناء صداقات، والتعرف على أشخاص يمكن أن يكونوا سندا نفسيا ومعنويا لها ، مع تأمين رفقة لأطفالها في حال خروجها لأداء تلك النشاطات، مما يساعد في إخراجها من حالة الوحدة والإحساس بالحرمان والبؤس التي تلقي بظلالها على حياتها، وإتاحة المجال لها للالتحاق بدورات للمساعدة النفسية الاجتماعية، تعينها في التغلب على مشاعر الوحدة والإحساس بالظلم ، والتخفيف من معاناتها من المسؤوليات التي تثقل كاهلها.

حارسات الحياة

حياة امرأتين: نموذجيتين؟ عاديتين؟

نازك سابا يارد

حين اختارت اللجنة المسؤولة عن هذا العدد من كتاب "باحثات" حيوات النساء موضوعاً له، فكرت في امرأتين لبنانيتين بين اللواتي أعرفهن، متقاربتين في السن، أرملتين، ولكن من عالمين مختلفين كل الاختلاف، الواحدة أعرفها منذ سنوات، والأخرى تعرفت إليها مؤخراً. وخطر لي: هل واجهتا عقبات لأنهما نساء، على الرغم من اختلاف البيئة والظروف؟ أم بسببها؟ ما هذه العقبات؟ كيف جابهتا ما واجهتا؟ هل كان بين الحياتين، ومن ثمّ بين المرأتين أوجه شبه، على الرغم من الاختلاف بين حياتيهما وظروفهما؟ دفعتني هذه التساؤلات إلى إجراء مقابلات كثيرة مع كل منهما، وخلال عدد من الجلسات سردتا أحداث حياتيهما، تطوّرها، بيّنتا تعقيداتها، وكيف اختبرتاها وفهمتاها. أجريت مقابلتي الأولى مع صاحبة المكتبة في دكانها، والمقابلات الأخرى في منزلها الذي دعتني إليه. أما طبيبة الأسنان ففي عيادتها حين تكون قد انتهت من معالجة الزبائن.[١]

أنتِ أميّة!

دخلت عليها في برمانا لأشتري مجلّة فرنسية. تردّدت لحظة وهي تنظر إلى وقافة الصحف الأجنبية، ثم قالت لي:

– لا أقرأ الفرنسية ولا الإنكليزية، حتى العربية تعلمتها وحدي. رفض والدي إرسالي إلى المدرسة.

فسحبت المجلّة التي أريدها، دفعت ثمنها وخرجت. إلا أن كلامها ظل عالقاً في ذهني: صاحبة مكتبة لم ترسل إلى المدرسة، تعلمت القراءة وحدها؟!

ظلت قصة صاحبة المكتبة هذه تشغلني، فذهبت استوضحها تفاصيل حياتها. رفضت أن أسجل كلامها، لأن أولادها سيتألمون، سيهانون. حاولت أن أقنعها بأنني سأكتب ما أسجل وأتلف الشريط، ثم إنني لن أذكر اسمها، ولا مكان إقامتها. وأضفت: "لو كنتُ مكان أولادك لافتخرت بأن تكوني أمي، بأن تكوني حققت كل ما حققت." ولكن، عبثاً. هل ترددت في الحديث لأنها لا تريد أن تخجل أولادها؟ ربما. إلا أنني أظن أن هناك سبباً آخر لعلها لم تعِه، فصوت المرأة لم يسمع خلال قرون، ولذلك احتاجت الآن إلى تشجيع خاص لتتكلم. في النهاية قالت لي:

–أكتبي ما أسرد عليك الآن. كأنني أخبرك بصفتك صديقة تسألني.

وبدأت تقص. أجابت أحياناً عن أسئلة أطرحها، ولكن في معظم الأحيان تدفق كلامها من غير أن أسأل، وكأن مرجلاً من المياه الغالية أزيل غطاؤه ففاض كل ما كان مضغوطاً فيه. وإذ بي أستمع إلى حياة امرأة جسدت، على ما أظن، حيوات آلاف النساء في بلدنا.

ولدت عام ١٩٣٦، وبدأت تعمل منذ الثامنة من عمرها. في أول الأمر كانت "تنمّش" البرتقال والليمون في بساتين أنطلياس قرب مسكن أهلها، ثم أصبحت عاملة صغيرة في معامل العسيلي للنسيج، تقبض ليرة لبنانية واحدة في النهار. وحين تنتقل العائلة إلى بيتها الصيفي في برمانا تنزل الفتاة سيراً على الأقدام إلى المعمل على الساحل، وتعود إلى بيتها مشياً أيضاً. كانت تعمل مع رفيقة أخرى في مثل سنها تقريباً، ولاحظت فتاتي الصغيرة أن رفيقتها تقبض ليرة وربعاً فيما تقبض هي ليرة واحدة فقط. وحين احتجت للمسؤول أجابها:

– رفيقتك تقرأ، أما أنت فأمية.

مع أن ذلك حزّ في نفسها رفضت الرضوخ، وطالبت بزيادة راتبها، أو بنقلها إلى قسم آخر في المعمل، كي تتخلص من سخرية رفيقتها التي كانت تعيّرها بدنو راتبها. فقرر المسؤول إبقاءها حيث هي مع زيادة الراتب. وأظن أن هذه الطفلة أتقنت عملها إلى حد أنه فضّل إضافة ربع ليرة إلى راتبها على الاستغناء عنها. طفلة في الثامنة، لم تعرف أن العمال يضربون ويتظاهرون لنيل حقوقهم، ولكن شعورها بعدم المساواة بينها وبين رفيقتها أعطاها شجاعة كافية لتطالب بحقها، وتناله.

وكان لهذا الحادث نتيجة أخرى إيجابية، أبعد تأثيراً في حياتها. أرسل والدها إخوتها الصبيان إلى المدرسة، أما هي فاعتبر أن لا حاجة إلى تعليمها لأن عليها أن تهتم بالبيت وبوالديها، وهي ابنتهما الوحيدة. وإذ كان قد حزّ في نفسها أن لا يساوى أجرها بأجر غيرها لأنها أمية قرّرت أن تعلم نفسها القراءة والكتابة. هنا سألتها كيف فعلت ذلك.

– حين كان إخوتي يعودون من المدرسة ويفتحون كتبهم ويقرأون درسهم بصوت عال، كنت أقف خلفهم أتبع بأذني ما يقولون وبعيني ما طبع في الكتب أمامهم. فتعلمت.

وعدت إليها في اليوم التالي لتتابع حديثها معي فقالت لي إنها أخبرت أولادها عن مقابلتي لها فلم يمانعوا أبداً من أن أذكر اسمها وأنشر ما تقص علي. فتابعت السيدة منى أبو فاضل قصتها.

ظلت تعمل في معمل العسيلي، تذهب إلى عملها وتعود إلى البيت، لا يسمح والدها بأن تخرج، بأن تعاشر أحداً، بأن تلهو كبقية البنات في سنها. أثناء كلامها لم تبدِ نقمة على هذا الوالد الظالم، فسألتها:

– ألم تنقمي عليه بسبب هذه المعاملة القاسية؟

وحين أحست بعينيّ لا تحيدان عنها منتظرتين الجواب، اعترفت بأنه كان يضربها، بأنها كانت تُعتبر خادمته وخادمة إخوتها الصبيان، وهي البنت الوحيدة في الأسرة، فلم يسمح لها بأن ترتاح أو حتى بأن تهنأ باللقمة التي تأكلها.

حين بلغت الخامسة عشرة من عمرها خطّبها والدها إلى شاب من "الجديدة"، وتركت المعمل. كان يعجبها شاب آخر، فطلبت من والدها أن يكون هذا خطيبها، إلا أنه رفض وأصر على خياره، مع أنه لم يعجب منى. ثم اتضح لها أن هذا الشاب قاس جداً إذ بدأ يفرض عليها مسبقاً شروط الزواج، كأن تخدم والديه وإخوته، أن لا تغادر البيت مطلقاً، فشعرت أنها ستنتقل من سجن والد تعرفه إلى سجن زوج لا تعرفه. ومن غير أن تجرؤ على مقاومة والدها وممانعة زواجها ممن اختاره لها لجأت إلى الحيلة، شأن الكثيرات غيرها ممن يشكل الاحتيال سلاحهن الوحيد. فبدأت تعمل على تنفير العريس. ترفض ما يطلب منها، تجيبه بوقاحة، تصر على ما ترى أو تريد، إلى أن فكّ الخطبة. فأخذت تساعد والديها في بقالتهما في برمانا حتى أصبحت في العشرين من عمرها. وذات يوم رآها شاب يعمل في الأمن العام فجاء إلى والدها يخطبها. لم يمانع الوالد بما أن الشاب ذو وظيفة ودخل مضمون، ومن أسرة معروفة، فقبل به، شرط أن تبقى منى قربهم لكي تستمر في خدمة الأسرة بالإضافة إلى خدمة عائلتها الجديدة، ورضي الشاب بذلك. لم يستشر الأب بنته، لم تكن منى قد رأت العريس أو كلمته. و"زفت المجهولة إلى المجهول" على حد قول ولي الدين يكن. هنا توقفت منى عن الكلام. وإذ لاحظت سؤالي الصامت استأنفت:

– لم أكن قد كلمت رجلاً غريباً في حياتي، فكيف لي أن أتعرى أمامه الآن؟ بدا لي أن زوجي تفّهم ذلك، فصبر عليّ ثلاثة أشهر، مع أن أهله كانوا يريدون أن يروا "نقطة الدم"، البرهان على بكارتي. إلى أن تعودت على وجوده، على مكالمته... ربما كانت هذه هي الحسنة الوحيدة فيه.

إلا أنها اكتشفت السبب بعد ذلك، وهو أن زوجها كان ذا علاقات بنساء كثيرات وكأن ذلك جعله يصبر عليها إذ نال مع غيرها ما يشبع شهوته، إذ لم يستغنِ عمن كان يعاشر من نساء أخريات. منى تطبخ وتغسل وتكوي وتنظف وتلد الطفل تلو الآخر (وضعت صبيين وثلاث بنات) وزوجها يبخل عليها بما يصرفه على عشيقاته أو على القمار. يغادر البيت أسابيع بكاملها أحياناً، وإن تجرأت وسألت أو طلبت منه بعض المال يكون الكف على وجهها هو الجواب السريع. سألتها لماذا لم تطلق زوجها، فأجابت:

– إلى أين تريدين أن أذهب؟ كان والدي بمثل قسوة زوجي، كثيراً ما كان يضربني هو أيضاً إذا ما تجرأت على مساءلته، أو رفض أوامره... ولكنه والدي.

وحين سألتها عما كانت تفعل حين تُضرب، كان جوابها البسيط:

– ماذا تريدين أن أفعل؟ أسكت وأتحمل. وإذا شكوت ضرب زوجي لي، ونادراً ما فعلت، كان يقال لي: هذا صليبك، عليك أن تتحمليه. فأتحمل.

إلى أن طفح معها الكيل، فقررت أن تعمل أي شيء لتؤمن لقمتها ولقمة أولادها. فطلبت من والدها أن يسمح لها بأن تساعده في الدكان وتساعد أمها في البيت، فقط مقابل أكلها وأكل أولادها. وبما أن زوجها لم يكن يأتي إلى البيت إلا نادراً، لم يفتقد وجودها. كان الجيران يشمون رائحة طبخها اللذيذ، فطلبوا أن تبيعهم مما تطبخ. فكانت تأخذ طلباتهم، تزيد الكميات، وتبيع. إلا أن والدها كان يستولي على كل ما يدفعون من مال، وظلت هي تقوم بأعمال البيت وبمزيد من الطبخ. خادمة مستعبدة، ومن غير أجر.

ثم كبر الأولاد، واحتاجت إلى ما يسدّ متطلبات مدرستهم، فأخذت تحوك الصوف في الليل، تنفذ أشغال "الإبرة"، تزرع قطعة الأرض الصغيرة أمام بيتها، وتبيع ما أنتجت يداها وأرضها. أو تلم أكياس الإسمنت الفارغة المرمية في الطريق، تنظفها، تسوّيها، وتبيعها. وربّت الدجاج في الحديقة الصغيرة أمام بيتها، فتبيع ما تبيض. "أقوم بأي عمل لكي أحصل على مال،" تقول لي. وحين أخذت تفكر في ترك زوجها إذ لم تعد تتحمل قسوته، أغراها والدها بالبقاء معه بأن أعطاها غرفة نصف مهدمة تجعلها دكاناً تبيع فيه ما تريد. كان لهذه الغرفة سقف فقط، ولكن لا باب ولا واجهة ولا ما يرد عنها مطر الشتاء والبرد في بلدتهم الجبلية.

ورأت أن الناس قد يستغنون عن كل شيء ما عدا الخبز. فاتفقت مع فران يسلمها كل صباح ربطات الخبز. تحمل هذه الربطات إلى خربتها، وتجلس فيها تبيع ما لديها من خبز، ثم أضافت إليها المناقيش. فأصبح لها زبائن دائمون تجذبهم إليها ابتسامتها العذبة في وجهها السموح، تلك الابتسامة التي جذبتني أنا أيضاً إليها حين دخلت دكانها للمرة الأولى. وحين كثر زبائنها أضافت الصحف إلى الخبز والمناقيش. وظلت تدخر ما تكسب حتى استطاعت أن ترمّم خربتها، تسدّ حيطانها، تثبت لها باباً ثم واجهة زجاجية، وتزودها ببعض الرفوف تصف عليها الصحف والمجلات. ولكي يزيد دخلها فكرت في تنويع بضاعتها، بعرض ألعاب للأولاد. وإذ لم يكن لديها مال كاف لشراء ما يملأ رفوفها، وضعت علباً فارغة بين علب الألعاب الملأى كي لا تصدّ الفجوات بينها عين المشتري. تذكرت ذلك وهي تبتسم، وأضافت:

– ولكن الناس أحبوني وساعدوني، فكانوا يشترون ما يجدون عندي، ووجدت من أمدني بالمال كي أزيد بضاعتي.

أما الحسابات فكانت تقوم بها في ذهنها: حساب ما عليها تسديده من ضرائب، من فوائد على ما تقترضه من الناس، من تحويل ما يدفع لها من دولارات إلى ليرات لبنانية، أو العكس. تحسب ذلك كله في لحظة. ولا تستطيع أن تخفي اعتزازها وهي تخبرني ذلك. لاحظت أن كلام منى فصّل جهودها للحصول على المال، وكرّر ما كانت تبذله في سبيل ذلك، فيما قلّ جداً كلامها عن أولادها، وعن دورها كأم، فلم تذكر لي شيئاً عن أولادها إلا بعد أن كبروا، وكيف أمنت لكل من الصبيين عملاً ومنزلاً، وزوجت بناتها الثلاث. فكأنها أحست أن ما تستطيع الاعتزاز به ليس دور الأمومة الذي لا يميزها عن غيرها، وإنما سعيها إلى الاستقلال الاقتصادي ونجاحها في أعمالها. ذلك، طبعاً، من غير أن تعرف شيئاًَ عن الحركة النسوية أو أن تكون قد سمعت بها.

– وزوجك؟ هل تغيرت تصرفاته؟

كان لا بدّ أن أسأل. فابتسمت بمرارة، سكتت لحظة ثم قالت:

– أخذني يوماً عند أهله، وكان قد أحضر معه إحدى عشيقاته. وحين طلبت أن يعيدني إلى بيتي، غادر معها وتركني في بيت أهله أتدبر أمري وحدي. ولكني نويت أن أتركه بمجرد أن يكبر أولادي.

إلا أنها لم تحب أن تتكلم عن هذا الزوج. حين ازدهرت تجارتها أضافت إلى دكانها غرفة في مثل مساحتها، حتي أصبح على الشكل الذي أعرفه اليوم. وكان همها الوحيد أن تعلم أولادها، ولا سيما بناتها، كي لا يحرمن مما حرمت هي منه. تابع ولداها علمهما في المدارس الرسمية، أما بناتها الثلاث فأدخلتهن مدرسة خاصة كي تؤمن لهن أفضل ما يمكن من العلم، تعويضاً عن عدم المساواة الجندرية التي كانت هي ضحيتها.

وإذ تكاثر زبائن دكانها وازداد دخلها بدأت تبني بيتاً على قطعة أرض كان والدها قد منحها إياها مقابل ما كانت قد ديّنته من مال ادخرته. تبيع أحد الناس ما تنتج أرضها من خضار، أو ما تكون قد حاكت من صوف، وتقبض مقابل ذلك كيس إسمنت، بعض الحديد أو الخشب. ثم زادت على البيت نصف طبقة سفلى وطبقة عليا. أجريت مقابلتيّ الثالثة والرابعة معها في بيتها وهي تدلني بفخر على ما أنجزت، وعلى الأثاث الذي تجدده كلما سنحت لها الفرصة.

وكبر الأولاد، فقرّرت أن تترك زوجها. إلا أنه أصيب بالعمى نتيجة ارتفاع السكري، فلم يسمح لها ضميرها بتركه، وأصبح مقعداً. تغيّر له ملابسه، تحمّمه، تطعمه، فوق ما كان عليها أن

تقوم به من أعمال منزلية، والسهر على دكانها. وحضرت والدته مدعية أنها تريد الاهتمام به، ولم تكن ألطف من ابنها، فتضاعف عمل منى، وكان عليها أن تتحمل قسوة الحماة بالإضافة إلى قسوة الزوج. و"زاد الطين بلة" أن أصيب والدها أيضاً بالعمى، فكان عليها أن تهتم بضريرين، وبأم أقعدها المرض وفقدت وعيها تسعة أشهر قبل أن تموت. أولم يرفض والدها إرسالها إلى المدرسة لتبقى قربه وتخدمه وزوجته؟! ونقلت والديها إلى بيتها كي تسهل عليها خدمتهما، فكانت تغسل أمها، تحفّضها، تطعمها إلى أن ماتت. وقد لفت نظري أنها لم تذكر شيئاً عن هذه الأم إلا في الأشهر الأخيرة من حياتها حين أقعدها المرض. وقد يكون السبب في ذلك أن قسوة الرجلين في حياتها طغت على كل ذكرياتها الأخرى من ماضيها؛ أو أن الأم كانت ظلاً لزوجها، تأتمر بأوامره، لا تدافع عن ابنتها الوحيدة، فلم تجد منى فيها ما يختلف عن زوجها أو ما يميّزها كأم. أما زوجها الضرير فلم يقلل من قسوته ولا تسمع منه سوى الشتائم، وظل يصر على المقامرة بأوراق "اللوتو" واليانصيب، وإذ ترفض هي أن تعطيه المال كان يشفق عليه ابنهما البكر الذي كان قد بدأ يعمل، ويعطيه.

– وأولادك الآخرون؟ سألت.

– لم يشعروا يوماً أن لهم أباً. كان يغيب عن البيت أشهراً بكاملها، وحين يعود يكون كالغريب، لا يكلمهم، لا يعطف عليهم، لم يقدم لهم يوماً هدية بمناسبة عيد.

بقيت هذه حالتها معه خلال سبع عشرة سنة. وإذ كان يتشاجر مع والدها الضرير نقلته إلى الطابق السفلي من بيتها، فيما ظل والدها في بيتها إلى أن مات. وأصرت أن يخرج الميت من بيتها هي، لا من بيت أحد إخوتها، أن تكرم حتى بعد موته من لم يكرمها ساعة في حياته. ومع ازدياد حاجة زوجها إلى العناية حين لم يعد يتمكن من ضبط بوله والبراز نقلته إلى غرفة كانت قد أضافتها خلف دكانها كي تخدمه من غير أن تنقطع عن مورد رزقها. فتنظفه، تغير ملابسه، تطعمه وتعيده إلى سريره. وقبل أن يموت ودّعها بقوله:

– ندمت على شيء واحد في حياتي: على أنني تزوجت امرأة أمية.

صعقت لدى سماعي ذلك، ولم تستطع منى أن تحبس الدمعة في عينها وهي تتذكر وداعه الأخير لها. أما أنا فانعقد لساني: انعقد إزاء نكران هذا الرجل كل ما قامت به زوجته لخدمته والسهر على بيته وأولاده، لتأمين عيشها وعيش أولادها، تغض النظر عن الإهانة اللاحقة بها نتيجة مغامراته النسائية وقسوته وفساد أخلاقه. لا تحاسبه، لا تعاتبه، لا تجافيه، وإنما وتنصرف إلى عمل منتج شريف ينسيها مأساتها، يخفف من عزلتها، يقوم بأود أولادها، وتخدمه حتى الرمق الأخير. فكان لا بدّ أن أسألها عن رأيها في الرجال، وفي الزواج.

– ماذا تنتظرين أن يكون رأيي في الرجال وأنا لم أرَ منهم سوى الاستغلال والقسوة والعنف، من الأب، أولاً، ثم من الزوج.

– وإخوتك؟ سألت.

– لم يكونوا أفضل، بل بالعكس. يأمرونني بخدمتهم منذ طفولتي. يجلسون ليأكلوا ولا أشاركهم. وحين أجلس بدوري لآكل ينادونني موبخين: "ألم تنهي أكلك بعد؟ ألا تشبعين؟! يلا، قومي! فأقوم وأنا لا أزال جائعة،" تقول والدمعة في عينها. "ومع أنني تزوجت، وترملت، إلا أنهم لا يزالون يتدخلون في كل شؤوني، لا يمكن أن يزورني أحد من غير أن يسألوا: من. وبما أنهم يسكنون حولي تبقى عيونهم تراقب كل حركاتي وسكناتي. لم يتح لي أن أعرف رجلاً لم يعذبني."

– هل جعلك ذلك تنقمين على الزواج؟

– أبداً. أرى أن الزواج ضروري، لإنجاب الأولاد. مهما كان الزواج تعيساً أرى أن البنت يجب أن تتزوج، أن يكون لها أولاد. فلولاهم لا يكون للحياة معنى.

وكأني بها ترفض أن تكون الشكوى آخر ما يتركه فيّ كلامها من انطباع، تضيف:

– توفي زوجي منذ أربع سنوات، فطلبت من والدته أن تعود إلى بيتها. لم أشعر أني فقدت أحداً بوفاته. والآن تزوج كل أولادي. تزوجت بناتي برضاهن، ومع أنني مانعت زواج الثالثة بسبب صغر سنها، إلا أنها أصرت، فنزلت عند رغبتها ولم أرد أن أكرر معها ما عشته أنا. واستطعت أن أؤمن لولديّ عملاً مستقلاً، أن أعطي أحدهما الشقة فوق شقتي، وأن أدفع للثاني ثمن شقة يشتريها. ولي دكان أجرته لبائع أزهار في برمانا. كل ذلك من تعبي أنا، من دخلي،

تقول باعتزاز.

– بقيت أقبض تقاعد زوجي بعد وفاته، ولكني أذخره في البنك، لا أمسه، أتركه لأولادي لعلهم يحتاجون إليه في المستقبل.

– وأنت؟

سألت.

– أنا؟ أنا بدأت أعيش بعد وفاة زوجي. بدأت حياتي منذ أربع سنوات. أنا سعيدة في دكاني، مع زبائني. سعيدة بأن أستطيع أن أخرج بحرية، أمشي في الحقول، أركب "البوسطة" إلى بيروت. وبما أن ابني الكبير يساعدني في الدكان أستطيع أن أتغيب أحياناً، فأنضم إلى رحلة تنظم إلى تركيا، إلى الأردن. سافرت وحدي إلى كندا حين كانت إحدى بناتي هناك، ولم أتردد أو أخف لأنني لا

أعرف اللغة... حين كنت بحاجة إلى مال، لم يكن لدي مال. والآن لديّ الكثير حين لم أعد بحاجة إليه.

تتكلم من غير أن تفارق الابتسامة وجهها السموح، سواء كانت تحدثني عن ماضيها الأليم أم عن حاضرها السعيد، عن حرمانها وعذابها أم عن سعيها ونجاحها.

والآن أفكر في أحاديث السيدة منى. على الرغم مما قاست من الرجال ومن قيم المجتمع وتقاليده البالية، فإنها استبطنت هذه التقاليد وتلك القيم. فها هي تخدم الأب والزوج الظالمين حتى الرمق الأخير، وترفض أن تخرج جثة والدها القاسي الظالم إلا من بيتها. وحين يضربانها تعزي نفسها بما يقول لها الأهل: "هذا صليبك!" فتسكت وتحمل هذا الصليب صامتة. ومع أنها هي التي ربت ابنيها وأمنت لهما بيتاً وعملاً، إلا أنها تهاب ما يقولان، ولم تسمح لي بنشر ما قالت إلا بعد أن وافق ولداها. وإذ تبرّر رفضها في بادئ الأمر بأنهما قد لا يريدان أن يعرف الناس ماضي أمهما أرى أن نقيضين يصطرعان في داخل هذه المرأة المميزة: إنها تعتز، من ناحية، بما أنجزته في حياتها على الرغم من قسوة ظروفها، ولكنها، من ناحية أخرى، تعير قيم المجتمع التقليدي أهمية. لم تلقَ من الذكور في حياتها غير العذاب، ولكنها استبطنت أهمية الذكر وضرورة الأخذ برأيه. وتشعر في لا وعيها ببعض الخجل من وضعها في الماضي. فحين سألتها هل يقربها شخص أعرفه من آل أبو فاضل في برمانا، أجابت أنها لا تريد أن تقرب أحداً. فأدركت أن وراء ذلك كرامتها التي ترفض الانتماء إلى من قد يعيّرها بماضيها الفقير. وعلى الرغم مما قاست من الزواج، تعتبر الزواج ضرورة، والإنجاب ما يعطي الحياة معنى، مع أن لحياتها هي معنى كبيراً بصرف النظر عن أولادها. فنظرتها إلى دور المرأة ووظيفتها هي النظرة التقليدية، مع أن الدور الذي لعبته هي في الحياة لم يكن تقليدياً على الإطلاق. ومظهر آخر لهذا التناقض في نفسها نجده في استسلامها، من جهة، لظلم الأب والزوج، على غرار غيرها من نساء مجتمعنا العاجزات المستسلمات لقدرهن، ولكن، على نقيض هؤلاء المسلّمات بقدرهن لا تسلّم منى أبو فاضل بكل ما قدّر لها، بل تقاوم وتبتكر وتعمل فتنتصر على هذا القدر. وهل يُنتظر أكثر من ذلك من فتاة جبلية نشأت أميّة، في بيئة بسيطة محافظة إلى أقصى الحدود، فحققت ما عجز عن تحقيقه من تمتع بكل ما حُرمت هي منه؟! إن الظروف التي واجهتها كان يمكن أن تجعل منها ضحية تثير الشفقة، إلا أنها ابتكرت لنفسها حلولاً جعلتها امرأة ناجحة تثير الإعجاب.

ألأني تزوجتُ أجنبياً؟

أما المرأة الثانية فلم تتردّد، مثل منى، في إطلاعي على سيرتها، بل بالعكس، أبدت حماسة في التجاوب معي، ربما لاعتيادها على الإجابة عن أسئلة كثيراً ما تطرح على مثيلاتها إذا ملأن استمارة، أو أجبن عمن يقوم بإحصاء أو مسح أو استفتاء أو غير ذلك في الأوساط الجامعية والمهنية. إلا أنها رفضت أن أذكر اسمها. ربما لأن أناساً كثيرين يعرفونها ولا تريد أن يعرفوا ما ستقول، مع أنها سكتت عن بعض الأمور ولم ترغب في أن أذكر بعضها الآخر. ولدت عام ١٩٣٣، وعلى نقيض منى أبو فاضل ولدت في أسرة أناس مثقفين: كان والدها طبيب أسنان معروفاً ووالدتها حفيدة أديب شهير. وبما أنها كانت البنت الأولى التي تولد في أسرة كلها صبيان رحبت الأسرة بها أيما ترحيب. أرسلها والداها إلى إحدى أرقى المدارس في حينها، ودفعا لها ولأختيها الاثنتين ثمن دروس في الرسم والرقص والموسيقى. هذا فضلاً عن تشجيع الوالد على الرياضة، فكان يسبح معهن في الصباح الباكر قبل توصيلهن إلى المدرسة. ولكي يوفقن بين دروسهن وهذه النشاطات دُرّبن، منذ طفولتهن، على النظام وتحمّل المسؤولية والاستقلالية، مما ساعدهن في حياتهن فيما بعد. تقول:

– باختصار، عشت طفولة سعيدة وجديّة، وبما أنني كنت الكبرى كانت مسؤولياتي أكثر من مسؤوليات إخوتي.

– إذاً، لم ينغص طفولتك شيء؟

سألتها وأنا أفكر في طفولة منى أبو فاضل. تردّدت لحظة كأنها لا تريد أن تجيب، أو كأنها تفكر في كيفية الإجابة، ثم قالت:

– كان أسهل عليّ أن أتفاهم مع والدي. كان عادلاً، لا يفرق بيننا. حتى حين ولد أخي بعد ثلاث بنات، لم يميزه عنا، لم يدلّله، بل بالعكس.

من موقف والدتها منها فهمت قضايا كثيرة كانت تثيرني في تصرفاتها. لأن والدتها أشعرتها منذ طفولتها بأنها هي المسؤولة، بأن عليها أن تتحمل، أن تسكت، أن تضحي، نشأت وكبرت وبلغت وهي لا تزال تتحمل وتسكت وتضحي. تحملت منى أبو فاضل وسكتت وضحت في ظروف مختلفة تماماً، أما هذه فلأن تربية والدتها لها أقنعتها بأن هذا واجبها بصفتها الأخت الكبرى، أصبح التحمل والسكوت والتضحية من أجل الآخرين طبعاً لازمها إلى اليوم.

أنهت دروسها الثانوية ونوت أن تتخصص في طب الأسنان.

– لأن والدك طبيب أسنان؟

– ربما كان لمهنة والدي أثر في ذلك، خاصة لأنني كنت أحبه كثيراً وأحترمه إلى أقصى حد. إلا أنني أحببت المهنة أيضاً. فحين كنت بين الأوائل في مباراة الدخول إلى كلية طب الأسنان،

اتصلت بي إدارة الجامعة وقالت لي إن علاماتي تؤهلني لدخول كلية الطب، وهذا اختصاص يتمناه كل طالب إذا كان باستطاعته الحصول على المعدل المطلوب. استشرت والدي، فقال لي بكل بساطة إن مرحلة الطب أطول، إن عليه أن يدفع أقساط ثلاثة إخوة بعدي، ففهمت أن من الأفضل القبول بطب الأسنان. لم يكن في كلية طب الأسنان سوى فتاة واحدة في السنة النهائية، ثم جئت أنا، وكنت البنت الوحيدة في صفي. وبقيت البنت الوحيدة في الكلية خلال سنتين قبل تخرجي.

– هل ضايقك ذلك؟ هل شعرت بعداء من قبل زملائك الصبيان؟

ابتسمت وهي تجيب:

– بعضهم كان أكبر مني سناً. هؤلاء كانوا يعطفون عليّ. أما الآخرون فكانوا يكايدونني، يخفون كتبي ودفاتري، مثلاً. ولكن الحسد كان يظهر حين تعلن نتائج الامتحانات فتفوق علاماتي علاماتهم. حينذاك كنت أشعر بالعداء الناجم عن إحساسهم بذكورة أهينت. إلا أن ذلك كله لم يسمّم العلاقة بيني وبينهم، فكان لي بينهم أصدقاء ما زالوا من أعز أصدقائي إلى اليوم.

وهنا أخبرتني أمراً بيّن لي أن البنت، حتى في هذه البيئة المنفتحة المتحررة، بقيت مقيدة. فمما كان يزعجها أن والدها لم يسمح لها بالذهاب إلى السينما، مثلاً، في رفقة زملائها في الجامعة إلا إذا كانت معها فتاة. فكان عليها أن تبحث في الخارج عن فتاة مستعدة لمرافقتهم، أو الاستغناء عن الخروج.

– والحب؟

كان لا بدّ أن أسأل. كان من المستحيل أن تعرف منى أبو فاضل الحب في الظروف التي عاشتها، أما صبية جميلة الوجه، ممشوقة القامة، بنت أسرة معروفة، وحيدة في جيش من الشبان، أفلم تحِب أوتحَب؟

– شعرت أن عدداً من زملائي حاول التقرب مني بدافع أقوى من مجرد الزمالة والصداقة. بعضهم لم أمل إليهم إطلاقاً، وواحد منهم كان يعجبني، إلا أني سمعت والدته تؤكد أن من تتزوج ابنها لا يمكن أن تعمل خارج البيت. فوضع ذلك حداً لعلاقتي به، فأنا لم أدرس طب الأسنان لأبقى بعد ذلك في البيت. ثم خطبت، إلا أن خطيبي سافر إلى الولايات المتحدة ليتخصص. حاولت أن أحصل على منحة كي ألحق به، دققت مختلف الأبواب، ولكن عبثاً. وحين ذهبت معه إلى المطار أودعه ورأيته يصعد سلم الطائرة، شعرت أن هذه تكون آخر مرة أراه فيها، وهكذا كان.

وبدأت تمارس مهنتها. وضحكت حين سألتها هل واجهت صعوبات أو عراقيل في مهنتها لأنها امرأة في زمن لم يكن في لبنان سوى ثلاث طبيبات أسنان. حين بدأت تمارس كانت عيادة

والدها في الشقة نفسها قرب عيادتها. وكونه طبيب أسنان معروف ساعدها في أول الأمر على إطلاق اسمها هي أيضاً. ولكن الأسرة كانت تصطاف في بكفيا، فكانا، هي ووالدها، يعالجان الزبائن في الصيف مرتين في الأسبوع في عيادة في بكفيا. في أول ممارستها المهنة تتذكر أن الناس كانوا يقرعون الجرس وحين تفتح الباب ويسألون هل الطبيب موجود وتجيب أنها هي الطبيبة كانوا يضحكون، غير مصدقين، مصرين على مقابلة الطبيب... وينصرفون. إلا أن الناس تعودوا مع الوقت على أن تعالج طبيبة أسنانهم، خاصة بعد أن أثبتت جدارتها، فلم تعد تواجه أية صعوبة. وكان بين زبائنها في بيروت شاب أجنبي، جيوفيزيائي يعمل مع شركة مكتبها الأساسي في بيروت. جذبها ذكاؤه الحاد، سرعة خاطره، خفة روحه وسعة ثقافته. فعرفت الحب الحقيقي وتزوجا.

– هل شكّل زواجك من أجنبي صعوبات؟

سكتت برهة، تفكر، ثم قالت:

– من عادة الرجال الأجانب أن يسهروا معاً في بعض الأحيان، لا ترافقهم زوجاتهم، يشربون ويلهون. وذلك لم يكن من العادات التي تعودت عليها في أسرتي أو بيئتي. كنت أرافقه قبل أن تولد ابنتي، ولكن بعد ذلك اضطررت إلى البقاء معها في البيت فيخرج ويسهر بدوني.

وحين سألتها هل آلمها ذلك كان جوابها البسيط شبيهاً بجواب منى أبو فاضل:

– لم يكن لي خيار آخر.

ولكن ما أزعجها أكثر من ذلك أن نسبة الضرائب التي كانت تدفعها كانت تفوق ما يدفع أبوها، مع أنهما كلاهما يمارسان المهنة نفسها. كانت حجة الدولة أنه رب عائلة، فأملت أن تخفف ضرائبها بعد زواجها وإنجابها إذ أصبحت هي أيضاً ربة عائلة. ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل. بل أكثر من ذلك، حين وضعت طفلتها وانقطعت عن العمل لتهتم بها وترضعها، طالبها موظفو الضريبة بدفع ما يترتب عليها، غير مصدقين أنها انقطعت عن العمل بسبب الولادة. ولم ينفع معهم أن تقدم فواتير المستشفى والطبيب، فاضطرت في النهاية إلى اللجوء إلى الوساطة لكي تعفى من دفع ضرائب لم يكن عليها أن تدفعها. وتساءلت: هل يعني ذلك منع النساء من الإنجاب، وعرقلة معاملات من تنجب؟! وللمرة الأولى في حياتها شعرت بتمييز ضدها كامرأة، لم يكن تمييزاً من قبل المجتمع وعاداته كما في حالة منى أبو فاضل، وإنما من قبل الدولة وقوانينها المجحفة. حتى حين أقفلت الشركة التي كان يعمل فيها زوجها، وأصبح عاطلاً عن العمل وهي مورد رزقهم الوحيد، لم تُعفَ من بعض ما تدفع من ضرائب. أخذ زوجها يبحث عن عمل آخر، وأثناء ذلك تحملت عصبيته وازدياد شربه نتيجة شعوره بالإحباط. في النهاية وجد عملاً، واضطرّ إلى السفر للتدريب على وظيفته

الجديدة. لكنه لم يكد يستقر فيها حتى أصابه سرطان في القولون في شباط ١٩٧٤. أجريت له عملية، ظل في المستشفى ١٨ يوماً، تركض إلى المستشفى بمجرد أن تنهي عملها في العيادة، فتنام في غرفته لتلبي طلباته في الليل، إلى أن تعافى وعاد إلى عمله. ولكن ما لبث أن فرّخ السرطان ثانية في كانون الأول من السنة ذاتها فأدخل المستشفى مرة أخرى. تترك ابنتها عند والدتها لتركض إلى زوجها في فترة الظهر، وبعد إنهاء عملها في العيادة. نصحها الأطباء بإعادته إلى البيت إذ لم يبقَ أمل في شفائه. ولكنها رفضت لأنها لم ترد أن ترى ابنتهما الوحيدة عذاب والدها. خمسة وأربعين يوماً ظلت تشهد ما يعاني زوجها من آلام لا تطاق، يتحملها بشجاعة أدهشت الأطباء أنفسهم، إلى أن أراحه الموت. توفي في ١٩٧٥، وكانت ابنتهما الوحيدة في الثامنة من عمرها. فقدت زوجها واكتشفت أن الشركة لم تكن قد دفعت تأمينه الصحي، فاضطرت إلى تسديد كل فواتير المستشفى والعلاج. فقط حين أصبحت أرملة اعترفت الدولة بأنها ربة عائلة وخففت ما عليها أن تدفع من ضرائب.

والآن أصبحت الحارسة الوحيدة لطفلتها، وواجهت التمييز الثاني ضدها كامرأة، ولم يكن الأخير لسوء الحظ. بعد وفاة زوجها الأجنبي ذهبت لتنقل اسم ابنتها من جواز سفره إلى خانتها هي، فجوبهت بالرفض، إذ لم يكن يحق حينذاك لأرملة لبنانية متزوجة من أجنبي أن تمنح ابنتها جنسيتها. وصعقت حين قال لها الموظف إنه يحق لها ذلك لو كانت ابنتها مجهولة الوالد! ولن تنسى ما قالت لها إحدى موظفات الأمن العام، وكانت لا تزال في ملابس الحداد على زوجها: "من أين أتيت بهذه الطفلة؟ كيف نعرف أنها ابنتك؟!" وكأن إجحاف القوانين لم يكفِ فأضيف إليه الإهانة والإذلال، ومن قبل امرأة!! فحاولت أن تهاجر مع ابنتها حين بدأت السفارات الأجنبية ترحل رعاياها بعد أن احتدمت الحرب اللبنانية. ولكن السفارة قالت إنها لا تستطيع أن تؤمن لها شيئاً بعد ترحيلها لأنها لم تولد أجنبية وإنما اكتسبت الجنسية بزواجها من أجنبي. امرأة عالقة بين قوانين مجحفة لا لسبب إلا لأنها امرأة: لا تستطيع أن تستفيد من جنسيتها كلبنانية، ولا من جنسية زوجها الأجنبي. فظلت في بيروت، هاجسها أن تحرس حياة ابنتها. وقد كان فقدها زوجها، ثم الحرب اللبنانية التي اندلعت بعد ذلك مباشرة، بمثابة انفجار قضى على طمأنينة حياتها وعلى استقرارها المادي. فبدلاً من دخلين لم يبقَ لها سوى دخلها هي، وبسبب المعارك قلّ من استطاع الوصول إليها من الزبائن.

ثم كان عليها أن تجابه أسئلة ابنتها: لماذا كانت هي، دون صديقاتها، محرومة من أب؟ وحين تحثها أمها على المثابرة والاجتهاد في المدرسة لأن ذلك كان من رغبات والدها، أجابتها مرة:

– كفّي عن ذكر والدي ورغباته! فهل هو هنا حين أحتاج إليه؟!

كذلك حزّ في نفسها عجزها عن توفير كل ما كانت تطلبه ابنتها حين أصبحت مراهقة: صديقاتها في المدرسة يرتدين أجمل الملابس وأغلاها، وحين تطالب البنت والدتها بمثلها تفهمها، بقلب مكلوم، أن ليس بإمكانها شراء مثلها؛ تصعد صديقاتها مع الصف للتزلج على الثلج، وهي لا تستطيع أن تدفع الثمن وأن تشتري الملابس المناسبة لذلك. ثم أنهت الفتاة دراستها الثانوية بتفوق. قدمت طلبات لأهم الجامعات في الولايات المتحدة وقبلت فيها جميعاً، وحين أرادت الأم أن تتقدم بطلب منحة لابنتها من مؤسسة الحريري، قيل لها إن المؤسسة تمنح المنح للبنانيين وحدهم. فدخلت الفتاة الجامعة الأميركية في بيروت، واستدانت الأم قسط السنة الأولى. بسبب علاماتها الممتازة ويتمها نالت الفتاة بعد ذلك مساعدة مادية محدودة من الجامعة، وسدّدت الأم ما تبقى. وظلت الأم تسدّد الدين بعد أن تخرجت الفتاة.

حين قتل عميدان من عمداء الجامعة الأميركية في رأس بيروت عام ١٩٨٦ وأغلقت الجامعة أبوابها، حوّلت الفتاة إلى الفرع الذي كانت قد فتحته الجامعة في جونية مؤقتاً وكانت أمها تزورها في نهاية كل أسبوع، تركب البوسطة التي كانت الجامعة قد وضعتها تحت تصرف التلاميذ والأساتذة المضطرين إلى اجتياز "الحدود" بين "البيروتين". وذات يوم سبت من أيام تموز الحارة كانت الأم قد أخذت مكانها على مقعد بعيد عن النافذة. فحين صعد طالب في كلية الطب وتوجه إلى مقعدها قالت له إنها لا تريد أن تغير مكانها لأن الشمس تزعجها، فجلس هو قرب النافذة. ما كادت البوسطة تصل إلى آخر جسر البربير حتى أُطلق عليها الرصاص بغزارة من رشاش في سيارة أخرى، وأصيب الطالب الذي كان إلى جانبها إصابة قاتلة. لحظتها لم تفكر في أنها نجت من الموت، وإنما فكرت في ابنتها التي ستكون من غير أب وأم لو كانت أمها قد غيّرت مكانها. خلال أسابيع كانت توقظها كوابيس الحادث، ترى الشاب المقتول ودماءه التي لطخت ملابسها، ولكن همها الأول كان ابنتها التي شعرت أن العناية الإلهية وحدها لم تجعلها يتيمة الأب والأم معاً. فهذه الحادثة وعدم إصابتها أو إصابة ابنتها بمكروه خلال سنوات الحرب الطويلة زادها إيماناً بالعناية الإلهية، ومنحها سلاماً داخلياً ساعدها على مواجهة الصعوبات بهدوء وطمأنينة.

وهنا استوقفني الفرق الشاسع بين كلامها وكلام منى: في حين أن منى لم تكد تذكر شيئاً عن أولادها دار معظم كلام الطبيبة وهمها حول ابنتها. ولا أظن أن السبب في ذلك يتم البنت، فقد أوضحت منى أن زوجها كان غائباً تماماً بالنسبة لأولادها. ولكني أظن أن السبب عائد إلى الفرق بين البيئتين: فالاستقلال المادي والنجاح في العمل كانا نادرين بالنسبة لامرأة من بيئة منى، مما جعلها تعتبرهما أهم منجزاتها. أما بالنسبة لطبيبة أسنان من بيئة مدينية متعلمة فلم يشكل الاستقلال

المادي والنجاح المهني أمراً نادراً أو شاذاً، فيما كان التحدي الذي واجهته هو القيام وحدها بدور الأب والأم وربة المنزل بالإضافة إلى دورها المهني.

وحين سألتها كيف استطاعت أن توفق بين هذه الأدوار قالت: بكثير من الصعوبة. استعانت بمدبرة للأشغال المنزلية، وبمربية لابنتها قبل أن تصبح في سن المدرسة. كانت طفلتها تحب هذه المربية كثيراً، ولا تطلب والدتها إلا حين تكون مريضة. فينفطر قلب الأم وهي تسمع بكاء ابنتها تطلب منها البقاء معها حين تضطرّ إلى الذهاب إلى عيادتها، تعالج أسنان الأغراب ولا تستطيع أن تبقى لتعالج ابنتها المريضة.

تخرجت الفتاة، واشتغلت في لبنان سنة واحدة فقط إذ كانت تحتاج إلى إذن عمل، ثم سافرت إلى باريس حيث نالت وظيفة جيدة، وتعرفت إلى شاب فرنسي ممتاز، فتزوجا وأنجبت فتاتين رائعتين. إلا أن وظيفة أمها في الحراسة لم تنتهِ. كانت والدتها قد توفيت، وإخوتها الثلاث خارج لبنان، ولا مسؤول عن والدها المسن غيرها. في ١٩٨٦ انفجر شريانه الأورطي مسبباً نزيفاً داخلياً. استُبدل القسم المقطوع من الشريان، وظلت ابنته تنام معه في المستشفى مدة ١٢ يوماً، حتى عاد إلى البيت. بعد ذلك عام ١٩٩٢، كسر وركه فعادت معه إلى المستشفى، ولكي تخدمه في الليل كانت تنام عنده على مخدات تمدها على الأرض. تسعة أيام، إلى أن عاد إلى البيت يمشي مع "واكر" أو عكازتين. وذات ليلة كان والدها قد وضع عكازتيه جانباً ليعود إلى سريره، فانقطع التيار الكهربائي فجأة، فتعثر ووقع وكسر حوضه. ظلت معه في المستشفى شهراً كاملاً، وبما أنه كان قد تخطى التسعين، استحال إجراء عمليه لجبره، فأصبح مقعداً. فكانت تمرّ عليه كل صباح لتعطيه الأدوية، ثم تمرّ به بعد العيادة وتبقى معه تعشيه وتعطيه أدويته، ولا تغادر إلا بعد أن ينام. اعتنت بوالدها المريض هكذا أربع سنوات إلى أن توفاه الله عام ٢٠٠١. صحيح أن خادمة والدها كانت تساعدها، ولا كان هذا الوالد قد أساء معاملتها شأن والد منى، بل بالعكس، إلا أنها كانت مقيدة بمواعيد طعامه ودوائه ونومه، لا حياة خاصة لها ترفّه فيها عن نفسها بعد عناء عملها.

في أثناء ذلك أصدرت الدولة قانوناً يمنح غير اللبنانيين الجنسية إذا توفرت فيهم شروط استحقاقها، فاستدعت ابنتها من فرنسا، وتقدمتا بطلب منحها الجنسية. حضرت البنت عام ١٩٩٦ مع طفلتيها. قدمت المستندات المطلوبة، متعرضة مع أمها والطفلتين لكل ما يتعرض له المواطن اللبناني من سوء معاملة وسوء تنظيم، وأدرج اسمها في ملحق طالبي التجنيس من المسيحيين، ولكن المعاملة أوقفت، ولم تعرف السبب، وقفلت عائدة إلى فرنسا بخفي حنين. ولم تشجعها هذه التجربة

المرة على المجيء ثانية إلى لبنان، مسقط رأسها، فأصبح على الأم أن تغلق عيادتها لتسافر إلى فرنسا مرة في السنة لترى ابنتها الوحيدة وحفيدتيها.

امرأتان من بيئتين مختلفتين كل الاختلاف، ولم يترك اختلاف البيئة والتنشئة أثره فقط في مسار الحياتين، كما بيّناً. إلا أنه ترك أثره أيضاً في ما آلت إليه الحياتان. فلأن منى أبو فاضل قضت حياتها في بلدة صغيرة بعيدة عن مآسي الحرب ومجازرها استطاعت أن تطور أعمالها تطويراً طبيعياً، وأن تذخر فوق ما يكفيها من مال. أما بنت المدينة فلم ينتج عن الحرب فقط الخوف وعدم الاستقرار، وإنما انخفاض دخلها أيضاً بهجرة الكثيرين من زبائنها أو تغيير مناطق سكنهم.

ولكن المرأتين تشابهتا أيضاً في أمور عدة. تشابهتا في شعورهما بالمسؤولية عن أسرتيهما، وبقيامهما بجرأة وشجاعة بما ألقي على عاتقهما من أعباء الحماية والعناية، غير مستسلمتين أمام الصعوبات التي اعترضت سبيلهما. وتشابهتا كذلك في صبرهما وتحمّلهما وقبولهما بما استحال تغييره من واقعهما. ودفعتا كلتاهما ثمن كونهما من النساء في مجتمعنا الذكوري. سواء كان السبب في ذلك تقاليد المجتمع المتخلف وقيمه وذهنيته البالية، أم قوانينه التي لا تزال تميز ضد المرأة على الرغم من كل الاتفاقيات الصادرة عن الأمم المتحدة. أما العقبات التي يضعها المجتمع فقد أثبتت منى أبو فاضل أن بإمكان المرأة أن تتغلب على بعضها، وإن ظلت مضطرة إلى الرضوخ لبعضها الآخر. أما قوانين الدولة فيستحيل أن يتغلب عليها إنسان بمفرده. ولكن على الرغم من إمكانية التغلب على بعض عادات المجتمع وذهنيته فقد اتضح أيضاً من موقف منى صعوبة أن يتخلص المرء كلياً من تأثير قيم المجتمع الذي نشأ فيه، ومن ذهنيته، مهما كانت هذه القيم والذهنية سبباً في عذابه. فالإنسان يستبطنها من غير أن يعي ذلك، وعليه قد لا تقلّ كثيراً سلطة المجتمع، المباشرة أو غير المباشرة، عن سلطة القانون.

فما خلصت إليه من هاتين السيرتين هو أن المرأة في نظامنا الذكوري تدفع دائماً ثمن كونها أنثى، مهما اختلفت ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ولكن لبعض نسائنا أيضاً من قوة الشخصية والشجاعة والإحساس بالمسؤولية ما يجعلهن يتغلبن إلى حد بعيد على هذا التمييز ضدهن، فيخرجن من معركتهن مع الحياة مرفوعات الرأس، منتصرات.

بنات عنيزة العظيمات:
صُوَرٌ نِسْوَية تقاوم الحَجْب والقُضْبان

أحمد الواصل

//مهداة إلى أمي عواطف القرعاوي.

-١-

..ولدت في ربيع ١٩٧٦ بعد وفاة جدي لوالدتي أحمد القرعاوي في نهاية شتاء١٩٧٥،وهو الذي تزوّج من جدتي لؤلؤة الشبيلي،نهايات الأربعينات الميلادية،وهما الاثنان ينتميان إلى عائلات تسكن مدينة عنيزة* لقرون تعود بأصلها إلى أحلاف تميم وعنزة من قبائل نجد الشهيرة حيث سكنا مدينة الرياض،في نهايات الخمسينيات الميلادية،في بيت عُدَّ من أوائل البيوت الإسمنتية البناء،بديل الطين المبنية منه البيوت المجاورة في حي الخزّان،ورزق جديَّ،أحمد ولؤلؤة،بكبرى البنات:نورة ونوال فعواطف(أمي)ثم صبي سُمَّي عبد الرحمن(توفي لم يكمل عقده الثالث)،فإبراهيم،ثم آمال فنادية وهند ثم سعاد والصبي الثاني وليد الذي نازعته رحم الولادة نهلة حيث كانا توأماً منفصلاً.فيما انتقلت أخته الكبرى حصة إلى الكويت مع زوجها من عائلة البسام وسكنت أخته الثانية المحسنة الرؤوم منيرة في حي عُتَيْقة.

..لم تذهب جدتي لؤلؤة ،في صغرها إلى الكُتَّاب،فقد تزوجت صغيرة كذلك في ولادتها أي طفل أو طفلة من أولادها وبناتها إلى المستشفى بل ولدتهم جميعاً في البيت حيث أعانتها حماتها،مضاوي،إلا التوأم وليد ونهلة،حيث سبق الصبي الصبية ما ألزمها عناية مضاعفة في مستشفى الشميسي الذي ولدت فيه فيما بعد.

.عاشت والدة جدي أحمد،مضاوي الخشَّان،بعض حياتها في الرياض حتى توفيت في بداية العقد الأول من منتصف القرن العشرين،وتحفظ لها جدتي لؤلؤة ذكرياتها الأوجاع عن"سنة الجوع"(١٣٢٧ للهجرة/ ١٩٠٧م) حيث كانت جدتنا مضاوي،أمي وأنا،ممن ساهمن في تبليل أفواه الكثير من أبناء عنيزة بالتَّمْر المكنوز لإنعاشهم من لعنة الموت جوعاً ضمن كثيرات،من بنات عنيزة،تطوَّعْنَ لعمل خيري داخل المدينة ساهمت في تموينه المحسنة موضي البسام،التي تربطنا علاقة خؤولة بها،وهي أيضاً ممن سيساهمن في حملة إكرام موتى"سنة الرحمة"(١٣٣٧-١٩١٧)حيث انتشر وباء الحُمَّى من حجيج ذلك العام ممن مروا في طريق عودتهم إلى شرق الجزيرة العربية بمدينة عنيزة،كذلك حجيج من أهل المدينة نفسها،ما أوقع حال هلع بسكانها،فجدتنا مضاوي من فتيات المدينة اللواتي ساهمن بهذه الحملة في غسل وتكفين الموتى،على أن الخوف أكل قول أخريات جعل ستين امرأة لم يرافقهن إلا رجلين وفتى يافع بالهجرة نحو الكويت حيث لم يعدن بعدها(١).سترث الأخت الثانية لجدي،منيرة،الكثير من الصفات التي ستنقحها وتدفعها إلى طور آخر حمَّلها دوراً اجتماعياً امتداداً لما عملته والدتها مضاوي،من بيتها في عتيقة،نحو نساء الحي،فقيرات وموسرات،إذ يبقى البيت مفتوحاً لمعاونة المحتاجين والمحتاجات،من أهل الحي،وفي الأعياد(الفطر والأضحى)سوف يرقب الأطفال ما تظل تحافظ على إقامته من طقوس الفرح الطفولي، بالعِيديَّة:سواء ريالات أو أكياس حلوى ومكسرات تعدها مع بناتها وبنات الحي لأحفادها وأطفال الحي..

..أما والدتي فقد افتتحت مشغلاً نسائياً يقدم خدمات الخياطة،والشك والتطريز ،كذلك خدمة تزيين العرائس بطاقم من الفلبينيات المهنيات،ثم أوقفت نشاطه لتكتفي باستمرار تربيتها وعنايتها لأخواتي الصغار اللواتي صرنا في طريق الزواج والعمل.

..لا زالت تجمعنا(الدايرة) كل يوم أربعاء من أسبوع حيث يكون اللقاء العائلي كبيراً بجدتي وبناتها فأحفادها ،وتجمع جدتي وبناتها قبلها(دايرة) أخرى كل خمسة عشر يوماً بجدات وبناتهن من ذات عائلة جدي القرعاوي حيث يكون الاجتماع الذي يبقى في إدارة القهوة العربية بهيلها(هالها) وزعفرانها، وحلويات عدة سواء ما يصنع بيد صانعات مميزات فيرسل من عنيزة بالطلب، مثل الكليجا في تنكه(صفائح المعدن) أو ما يصنع بالمنزل مثل التاوة (اللقيمات) أو ما يرد من المخابز التجارية بحكم الجوار وتوفر محلاته من الحلويات العربية:المعمول والبقلاوة أو ما صار يمهرن فيه بعض خالاتي من صنوف الحلويات.

..لا تنتهي أحاديث هذه اللقاءات في لوحة من الفسيفساء الشرقي يجمعن الزمن ويختزلنه،فيعرك أجفان الماضي بالمستقبل،وكل ما هو راهن ويومي في حدودنا وما يتعداها يبقى الحديث عن هموم المدرسة والبيت،الشارع والسوق ،العالم والفضاء إنما يبقى هدير الأخبار لا يغيب من بين فورانه سقياً عن القريبات في عنيزة،والبعيدات في الكويت.

..ربما يدور الحديث عن الحياة الاجتماعية،التلاقي بين الجيرة من بلدان عربية أخرى،وربما كان الحديث عما أثارته إحدى خالاتي من الجيل الأصغر حول تحريم عرض واستكتاب الذكريات في الأوتغراف،وتستنكر ذلك بحس ليبرالي خالتي الكبيرة نورة لكون هذا الأمر كان عادياً في الستينيات والسبعينيات..

..تذكر جدتي خلال لحظات الحَكْي والسواليف (القصص) عن القريبات والبعيدات بعض ما مضى لتمرر بيتاً شعرياً أو حكاية،وأذكر خلال انهدار حرب الخليج الثانية(١٩٩٠) بقينا في الرياض فيما تنقلن خالاتي مع أزواجهن بين الرياض ومكة المكرمة انتقلت جدتي لؤلؤة صحبة خالي وليد،وخالتي آمال التي لم تتزوج بعد ترافقهن خالتي نهلة التي لم تختم نفاسها،إلى مدينة عنيزة،حيث رحن قبلها أخوات جدتي:مضاوي ومنيرة فيما كانت أختها الصغرى نورة وأخيها الأصغر عبد الله يعيشان مع عوائلهما فيها.تذكرت جدتي سنوات البلاء والمحن النجدية مما سمعته وقالته سواء والدتها حصة الشبيلي التي أكل ذاكرتها الخرف مدة ليست بالقصيرة أو حماتها مضاوي الخشَّان التي أخذها الموت بعد موتات سابقة لغيرها.

..ها هن البنات،خالاتي ومجايلاتهن قريبات وبعيدات،بنات مدينة الرياض أو الكويت،وحفيدات عنيزة لَسْنَ وحدهن

..إن حفيدات عنيزة تفرقن في مدن اللسان العربي.سأذكر لبنى العليان التي تدير وترأس مجالس اقتصادية لشركات والدها عبد الله العليان من مدن المملكة،وأذكر ثريا التركي الباحثة والأستاذة الجامعية التي تقطن مصر، وأذكر المغنية سناء الخرَّاز **التي تعيش في الكويت.كذلك أخريات..

..لم تصل المرأة العنيزية،وهي النجدية أعمَّ إقليمياً،والعربية أعمَّ جغرافياً،إلى ما هي عليه عبثاً وصدفة بل كان ذلك يمر عبر مرحلة طويلة من التراكمات الحضارية،بمساهمة لم تكن بعيدة عنها النساء السابقات في السياق

الاجتماعية،بمختلف الظروف السياسية والاقتصادية،وهذا ما أثمر أدواراً ثقافية عظمية قامت بها هذه المرأة العنيزية.
..إذا كنت سُقْتُ مشهداً عائلياً حيوياً في طزاجته،فإنني سأعده تمهيداً مشعاً ليضيء دراستنا القادمة،فيما سأختم برواية شفوية عن العنيزيات العظيمات في سياق آتٍ لاحقاً.حيث ستكون سياق الدراسة تخصيبياً لها لما تتمتع به من كونها مروية شفوية نقاربها دفعاً لما نتطلع إليه تأصيلاً.
//شيلة تخترق الزمن:
..توصلت،ثريا التركي،في دراسة"عنيزيات في زمن يهتز"(٢)،إلى دور المرأة العنيزية في مجال الحياة الاجتماعية عبر الشعائر الدينية،الأعياد(الفطر والأضحى)،المولد النبوي،تقديم النذور وتكريم الأولياء (٣)ومناسبات تتصل بما قبل الإسلام إنما تخص المجتمع الحضري والبدوي مثل،جهاز العروس وتميمة المولود(أضحية دفع بلاء)كذلك الغناء والرقص،ودورها الآخر في الأنشطة الاقتصادية سواء نشاط الزراعة والرعي(٤) أو البيع والتجارة(٥)،ثم النشاط التربوي عبر التعليم (٦)والثقافي عبر الفنون والآداب.
..إذا كانت النشاطات الاجتماعية بالمساهمة النسوية،في مدينة عنيزة، تُهيِّئُ مستوى من التكامل الاجتماعي في دور الرجل والمرأة سوياً(٧)،باشتراكها في أعمال اقتصادية وتجارية،الزراعة والرعي، وتملك الدكاكين والبيع،كذلك كونها صارت تسهم بموهبتها وحرفها في المجتمع:خياطة،مزينة،بائعة،معلمة،شاعرة وناشطة اجتماعية ما يعطي المرأة حق ارتفاع صوتها،أي:بوجودها كائنة اجتماعية تسهم في حضارة المكان ،ضمن سياق الظروف الاقتصادية والسياسية،لا يمنع من أن"إيديولوجيا الوَهْبنة"(٨) ساهمت في دور سياسي قاد إقليم نجد في البداية بالنزوع نحو استقلال ووحدة مفارقين(٩)،من بعد مع أقاليم الجزيرة العربية،إلا أن عزلته ظلت تاريخية لظروف طبيعة جغرافية بددت سياسة أمرائه وخصومهم في إفقاره بحرق المزارع وتسميم آباره أو هدم البيوت والإبادة الجماعية(١٠)،خاصة في جنوبه،فيما كانت أقاصيه الشمالية استطاعت النهوض العمراني والبشري:حائل (١١)والقصيم(على الأخص:عنيزة)(١٢)،لتكون في تكوينها الاجتماعي متعاونة ومتكاملة على مستوى نخبها الداخلية،ومنفتحة على العالم الخارجي،سواء الجوار العربي أو البعيد الأجنبي(إيران والهند).
..إذ لو رأينا ما جرؤت عليه الأمة العربية في كامل تاريخها،من الخليج إلى المحيط،لهي استطاعت أن تبز الكثير من الأمم بأنها استطاعت،بصدفة حمقى،أن تتجرأ على القيام بفعلين(١٣):
١-تجاهل الماضي،باعتباره مظلماً.
٢-حجب المؤنث،باعتباره خطيئة.
..لقد استعيد في فترة لاحقة تنقيح ذينك الفعلين من خلال أطروحة أكثر تطرفاً،وهي"إيديولوجيا الوهبنة" خلال القرن العشرين،بعد محاولتي بدء وسقوط الهيكلين السياسيَيْن منذ القرن الثامن عشر الميلادي:الإمارة الأولى-١٨١٨،والإمارة الثانية-١٨٩١،عبر ما عرف منطلقاً من هِجَر توطين البادية على أطراف نجد:
"الإخوان"(١٩١٠-١٩٣٠)(١٤)،والتي زعمت إصلاحاً طال تكبيت الموروث الطوطمي:تقديم النذور وزيارة الأولياء،للمكان والمجتمع،ثم التصفية الأخلاقية بإعدام زانية اعترفت بزناها من أهل العُيَيْنة(١٥)، فيما لم يمس الزاني بشيء،أليس هذا مستغرباً؟،المرأة تعترف لتعدم والزاني ربما كان أحد راجميها.

..إن علاقة أي شعب يريد بناء حضارته ليست تتعزل هذه المحاولة،كإنجاز ومحصلة على مدى زمني ومساهمة بشرية من الجنسين،عن مداولة عناصر العمران بين ما يستحق البقاء لحيوية خلاياه وآخر يموت لاستنفادها.

..إن المرأة العنيزية،أو النجدية عموماً،تكونت عاداتها وتقاليدها وفق المعطيات البيئية،فالمِهَن أو الحِرَف، ثم التنظيمات الاجتماعية كنواة لنشوء نخب ثقافية:أدبية وفنية،عسكرية وعمالية،سياسية واقتصادية كانت تتشكل وفق المعطى الجغرافي والزماني،فإذا كان استخدام البرقع(١٦) أو الغطوة(١٧)أثناء العمل أو السفر،فهو لاتقاء ضربات أشعة الشمس واتقاء لرياح السموم،فإن العباءة(١٨) تطورت من قصرها إلى طولها، على الأذرعة والقوام،لمفهوم الحجب والقمع الأخلاقيين المؤدلجين،وإذا ما كانت تلك الإيديولوجيا الإسلامية اقترحت تصعيداً تطرفياً في منظومة مجتمع مَشْيخي (ذكوري)قابلة في أي مستوى وقيمة نحو الفصل النوعي إلى العزل تجاوزها الأفراد في قرابة العائلة الواحدة،بمبرَّر من العادات العربية القديمة: الرضاع الذي يمنح الأخوة بين ذكر وأنثى لأمين وأبَّين(١٩)،وإذا كانت المساجد لا يحمل صدى محاريبها ومنابرها سوى آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية،وأدب الخطب والتفسير،فلم تَخْلُ الحياة من طابعها العلماني والمدني في مجالسها اليومية،كالمِشْراق والحِسْو(٢٠)،وأحْوِشَة(أفنية) مسوَّرة أو مكشوفة نحو الأفق الماورائي ضمت الآداب والفنون الاحتفالية ذكوراً وإناثاً.إضافة إلى كونها عناصر جذب حيوية لتشكيل يوم مدينة نجدية،ستجد النساء الصغيرات والكبيرات خلال فترة الضحى يخرجن،لبرهة استراحة من عمل أو يكُنَّ ربات منزل فقط،في جهة خارج المنزل ليجلسن ويتحدثن،وهذه الأحاديث لا تخلو من رصد البناء الاجتماعي لتكون مشاريع مستقبلية لاحتفال بطفلة أو فتاة حفظت القرآن الكريم(التحميدة) أو لخطبة فتاة وتجهيزها عروساً(الروشاد) أو لمناقشة أمور حياتية،وفي هذه المجالس المتعدية إلى ما هو خارج نظام القرابة والنسب أيْ:في العلاقات الاجتماعية:زمالة العمل والصداقة.

..لا نفهم من تلك الحالة المصعدة إيديولوجياً وهبنةً،التي أدعت إلى تحول اجتماعي ليس بالضرورة يتقيد الكثير فيه برصف حال العقوبة والرضا الإيديولوجي،من تَجْفير الهُوَّات بين الجنسين،فلن نستغرب أن يكون الجنسين مشاركين في عقد مثل هذه الاجتماعات الخارجية،وهذا يكشف أن هناك ما هو مخصص للرجال أيضاً،التي من الممكن أن تتيح إلقاء السلام والسؤال عن الأحوال والاستشارة في أمور اجتماعية أو اقتصادية،مثل عرض عمل أو بيع وشراء.

..وإذا كانت تلك العادات والتقاليد الحياتية اليومية بدت في الاختفاء على مستوى الشارع العام منذ تأسيس المملكة-١٩٣٢،فإن بقاء بعضها أتاحه رباط من قوة العرف الاجتماعي ودعم الذاكرة الشفوية لعناصر بشرية متنوعة نساءً ورجالاً،هم أبناء وبنات تلك المرحلة،فقد شكلت جزءاً من مفردات الحياة واليوم،على أن جيلين منهن ومنهم-أي:أهل عنيزة،سوف يمتنع ممارسة تلك الأدوار وتنزوي بعضها في البيوت لأسباب متباينة في الدوافع خلال منتصف القرن الماضي،لكن آثارها لا تنمحي.إذ تستعاد في أساليب تصرفات كبيرات السن وعلامات أجسادهن وكذلك في الحكي والسواليف(القصص) الماضية.

..سوف تسمح لي الدراسة بتقديم نماذج من النساء ذوات النشاط الاجتماعي في مدينة عنيزة(٢١)،من اللواتي رسمن معالم المشهد الثقافي والاجتماعي،وهن مُسْهِمَات بعمق في تشكيل حقول ذات حيوية ناشطة ومؤثرة:التربية والتعليم،الثقافة والسياسة،وأنشطة المجتمع المدني.

//رهيطة بالبر والحطب:

..أولى هذه النماذج،المُعلِّمة نورة الرهيط(١٩٢٥-١٩٩٥)،ولدت في عنيزة وتعلمت على يد والدها: سليمان بن فهد،الذي بدوره أحد تلامذة عبد الرحمن السعدي(ت:١٩٥٦).فتحت كُتَّاباً(٢٢)،في عمر السادسة عسر،لتعليم الفتيات -١٩٤٦،صار يدعى:"كُتَّاب رْهيْطَة"،ساهم في دوره التعليمي خلال أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي بمواد أولية:القراءة والكتابة،حفظ وتلاوة القرآن الكريم وبعض الموضوعات الدينية:في الفقه والتوحيد كذلك الأدب العربي والحساب،بفترتين صباحية ومسائية.كانت تأخذ أجرها صاعاً من البر صيفاً وبعض حطب شتاءً(٢٣).

..لا تعطينا المصادر أي توصيف لحال الكتاتيب،سوى المختص بالذكور،فهي إما تكون في زاوية مسجد (حلقة)وإما في غرفة بجانبه،ربما تكون مجانبة لغرفة الإمام أو المؤذن، وهذا غير متاح للنسوة،إلا أن بعض المعلمين(المطاوعة)(٢٤)،يلجأ لتخصيص غرفة في منزله(٢٥)،وربما هذا ما فعلته المعلمات،مثل نورة الرُّهَيْط،حيث خصَصْنَ في دارهن غرفةً لاستقبال الطالبات صباحاً ومساءً.ربما هذا ما كان عند رهيطة،التي تعيش يومها بتعليم الفتيات.

..عندما افتتحت المدارس النظامية،توفرت لها فرصتها بمتابعة تعليمها للطالبات،فيما تكمل تعلمها شهادة إلزامية تؤهلها للتدريس عبر طريق المنازل١٩٦١-١٩٦٤،وتولت عدة وظائف إدارية في سلك التعليم: من مدرسة إلى مساعدة مديرة صباحاً ومساءً مديرة للمدرسة الأولى:لمحو الأمية(١٩٧٣-١٩٨٢)،وظلت مساعدة مديرة حتى أحيلت للتقاعد(١٩٨٩)ثم جددت خدماتها الإدارية(١٩٩٤).

..لا يخفى أن نورة الرهيط،ممن شهدن فترة انتقالية ما بين تعليم الكتاتيب(٢٦) إلى المدارس،و هي صورة عن دور المرأة في عنيزة،وفي نجد كما نكرِّر دائماً،من سعيها نحو حقها في التعليم والواجب الاجتماعي الذي هو صورة من حقها في العمل وتقديم خدمة اجتماعية عبر حقل التربية والتعليم لبنات مجتمعها.

//خلوج الأربعين خوفاً:

..أما الشخصية الثانية،الشاعرة نورة الهطلاني(١٨٦٠-١٩٠٤)،ولدت في عنيزة،وتزوجت من نهار بن رهيط ،وأنجبت له بنين وبنات،يذكر التاريخ لها ابنة اسمها هيا ذكرتها في شعرها.

..لا يخفى أن الشعر،إلى غير مستواه وقيمته الأدبية والجمالية،فهو يحمل بعداً ثقافياً يعبر بالضرورة عن دورها اجتماعياً في التعبير عن أنا الجماعة النسوية لا الأنا الفردية الاختزالية،فيسجل الشعر حالات تكاد تكون متشابهة في النوع الموضوعي إنما متباينة في درجات أسبابه ونتائجه إلا أننا نستطيع،تغليباً،رصد حالات تعانيها المرأة العنيزية،والنجدية في الأعم،مثل:الترمُّل بسبب حرب أو ثأر(٢٧)،هجرة الزوج للتجارة والعمل (٢٨)،الطلاق لكونها عاقراَ(٢٩)،وهي ظاهرات اجتماعية لا تطال الرجل بحكم ما تمليه تركيبة النظام المَشْيَخي(الأبوي)التي تمنحه مناعة عن وقوعه(أو شعوره)في هذه الحالات ،إلا أنه لا يمنع من يمر بحالات أخرى تمليها ظروف ذات التركيبة النظامية المَشْيَخيَّة التي لا تعنيها مقترحات العقوبة الدينية: صاحب طلائب(مشاكل) الاغتيال غدراً،خائن سُلُوم(أعراف)الأخذ بالثأر،بوَّاق عرض أو مال(عادة ينفى خارج القبيلة أو المدينة لفعل قبيح).

..نورة الهَطْلاني،شاعرة مدنية،ممن أصبن بحالة الترمل بسبب حرب،لكونها فقدت زوجها فكتبت قصيدة رثاء أو مرثية،لكنها في قصيدة أخرى،مصوغة ملحمياً،تضع نفسها في صورة المدينة-الأم الفاقدة لأبنائها.

..إذ شهدت حياة نورة معركة المُلَيْدا-١٨٩١(٣٠)،وأثرت فيها نتائج تلك المعركة،كما أثرت على أهل عنيزة،لكونها فقدت زوجها محارباً فيها:

"هيَّضْ جِوابي صُوْت عَجْمَا تحنِّي/من ولْفٍ بْوَلَهْ نعَبْها بفَرْقَاه

وَلِّيْ خَلُوجٍ هَوِّدي وارْجِهِنِّي/يا ما غدا مِنْ غَالين ما رجيناه

كَمْ مِشْفقٍ قبلك من الوِلْف حنِّ/يشكي صوابٍ بين الاضْلاع بِذْرَاه

يا مِنْ يذكِّرْني سنينٍ مِضَنِّ/يوم الزمن والخوف ما سِمَعْ بطِرْياه"(٣١)

..في أبيات أخيرة من القصيدة الرثائية،تحول القصيدة إلى حالة حوار شعري بينها وبين أخريات،أو آخرين، ربما يعبرون عن أصوات افتراضية،أو هي أصوات أنا الجماعة النسوية،ثم توجه الحوار إلى ابنتها الصغيرة هيا،وتعبر لها ألم الفقد الذي لا ينتهي حتى تقبر هي أيضاً مثل زوجها:

"بكوة هيا جزت عن النوم عِينِّي/قالوا:يتيمة.قلت:ألا اعناياه!

لو إن أبوك بديرةٍ يذكرنِّي/تسعين ليلة بيننا بعد مَمْشَاه

أرجيه ما دام النفس تَذْرينِّي/لما أصير بظِلْمَة القَبْر وانساه"(٣٢)

..لم تقف على رثاء زوجها لفقدها إياه في تلك المعركة،بل إن شعورها بالأنا الجماعة النسوية،جعلها تكتب مرثية أخرى تعالج فيها مصاب الكثيرات،والكثيرين،وهي بذاتها تتمثل مدينة عنيزة(٣٣) لفقدها عناصر بشرية في معركة تؤثر في سير الحياة وبشرها فيها:

"لعل جَوِّ الضِّلْفَعَةْ للدِّمَارا/ولا يدب بهَ الحَيَا دايِمٍ حَاف

حيثه إنه يذكرْ به الحَرْب ثارا/حزَّة غروب الشمس يضرب الأوصاف

لا واحسايفْ يا عيالٍ سِكَارا/زَمُّول الأوادِمْ ما ثمنْهُمْ بالآلاف

ترى السِّعيْد اللي قعَدْ بدارا/ولا حضَرْ كُون المُلَيْدا ولا شاف!"(٣٤)

..ومن الممكن أن تكون هذه القصائد:"هيَّض جوابي"و"جو الضلفعة"،المنظومتين على طرق(أو قالب) المَسْحُوْب(٣٥)أخذت طريقها غناء على الربابة،إن لم تكن هي نورة الهَطْلاني من مجيدات الغناء والتلحين (٣٦)،ولا ننس أن عدم ذكر ذلك لأسباب"إيديولوجيا الوَهْبنة"القائمة بالتحريم والعيب الاجتماعيين،إلا أنه يحفظ لها مقطوعة صغيرة معبرة عن ولعها بزوجها البدوي نهار بن رهيط:

"قلبي يحب حبيِّبي مِيْر يَكْوين/مَكْوى يبيح القيح قبل دمَّهْ

أحبُّهْ لَوْ هو يَطْبَخَنْ ثم يَشْوِيْن/يِبْرِدْ لَهيب القَلْب ضمَّهْ ولَمَّهْ

يا حِلْو قُوْلَةْ:هِيْش،يا وِيْش تَبْغين؟/أحلى من الورْعِ المُغَاغي علَى امَّه"(٣٧)

..يتسم هذا الشعر النبطي(المحكي أو العامي)بمرونة تواصل بالذاكرة إلقاءً أو غناءً،وهو ينقل رسائل شاعرية وعاطفية شخصية بالإضافة إلى رسائل بطولة عامة وتمجيدية(٣٨)مُشكِّلاً أرشيفاً يضاهي التدوين والتسجيل، فقوته المعرفية والجمالية موقوفة على الشفوية(٣٩)إلا إذا ما كان غناءً بحسب توفر عناصره الآلية:الحنجرة والآلة وترية أو إيقاعية،فهو-كما تقول مضاوي الرشيد-:"شعر الحياة الشخصية الذي يتمثله الأفراد حين يغنونه في سياقات اجتماعية محددة،خاصة في الغالب،حيث يُفَصلون فيه أحاسيس عن أوضاعهم الشخصية

وعلاقاتهم الأشد حميمة.والجدير بالملاحظة أن [مهنة الغناء (أو الطروق)] تبدو شائعة بين النساء والذكور الشباب"(٤٠).

..لعلنا نذكر ،عليا الشودرية،والدة بطل رواية:"شرق الوادي"لتركي الحمد،حيث وظف شخصية المرأة القصيمية،لكونه اختار شخصيتها من ساكني خبوب بريدة(قراها)،وهي تندب غياب ابنها"رفيع السماوي" الذي راح خارج القصيم في رحلته الطويلة شرق الوادي،وتحول إلى سبحونة(خرافة) بقصصها وشعرها، لكنها تألمت لفقده حين أسلمت روحها(سنة الرحمة)(٤١)،التي سنتحدث عنها في مقطع شخصيتنا الثالثة لاحقاً،و ننهي هذا الجزء بما يقوله الباحث الخريصي عن المرأة النجدية،في نموذج نساء قبيلة شمر: "أنموذج عطاء وأمثولة رفق،فهي تبذل المودة لتشمل الزوج والخ والجار وغير هؤلاء سواء بسواء،وهي تسارع في صنع الطعام في أي وقت من الليل والنهار للطاعمين.تغزو وتحرس،وتقول الشعر ببراعة وبطريقة مختلفة،وهي قليلة الفرح كثيرة الحزن [..]،لكن لها دوراً يكمن في الوضوح والثقة والتفاعل،محاولة في جعل الطرف الآخر يعترف بحقها في المشورة والنصح [..]وهي لا تريد أن يكون زوجها غير متميز بمكارم الأخلاق،[وهي تشارك] في الحرب حيث النساء كن يزغردن حينما رأين رجالهن يدافعون عن محارمهم في مواجهة قوة أكثر عدداً وعدة،وهي تنتظر زوجاً [أو أخاً أو ابناً] يغيب في سفر،وتبكي بحرقة وهلع إن عاد رفاقه ولم يكن معهم.."(٤٢).

//"إذا جاك ولد سمَّهْ موضي!":

..أما الشخصية الثالثة،فهي الناشطة الاجتماعية مُوضي البسَّام(١٨٤٣-١٩٤٣)،وسوف أعتمد على سيرتها بما كتبه المؤرخ والقاضي عبد الله البسام(ت.٢٠٠٣)،من خلال مؤلفه:"خزانة التواريخ النجدية"حيث أضاف في الجزء الثالث،أربع شخصيات:مزنة المطرودي،مزنة البسام ولؤلؤة العرفج(٤٣).أما الرابعة فهي المتحدث عنها الآن،من خلال مدونة أشعر بأنه كتبها من رواية نسوية شفوية،تلمس فيها استيفاء المعلومات التاريخية بالدقة والتحديد،وأضاف قليلاً بعض المعلومات من سياق حياتها،كحدث تاريخي يتعلق بالمكان الحضاري أو السياسي أو الاجتماعي،وسوف أحيل إلى بعض الأمور لنشرحها،فالمروية تقول:

"هي موضي بنت عبد الله بن حمد عبد القادر بن حمد البسام.

..فجدُّها في نهاية هذا النسب هو الذي قدم مدينة عنيزة من بلدة حَرَمَة في سدير.

..ولدت في بلدها وبلد أسرتها عنيزة بالقصيم ١٢٦٣ للهجرة[١٨٤٣ م]،ونشأت في بيت عفاف وطهر،صيانة واستقامة.وكان والدها عبد الله هو أحد الأثرياء أصحاب المحال التجارية في جدة،وقد توفي شاباً ولم يخْلِفْ من الذرية غيرها.حفظت القرآن الكريم واهتمت بمعرفة تعاليم دينها.وكان جامع عنيزة بالقرب من منزل أهلها فكانت تسمع المواعظ والأحكام الشرعية من مدرسي هذا الجامع وعلمائه.

..وكانت امرأة حصيفة عاقلة ذات أفكار صائبة وعقل راجح،فاختارها الوجيه العم عبد الله بن عبد الرحمن البسام زوجة لابنه عبد الرحمن العبد الله البسام،وسعد بزواجه بها وأنجبت منه ابنه الوجيه إبراهيم العبد الرحمن البسَّام.وقد اشتهرت بالإحسان وإنفاق الأموال الطائلة على الفقراء والمساكن لا سيما في سنين المساغب والمجاعات أو ما تخلفه من أضرار فإنها تنفق في ذلك كل ما تملك ابتغاء ثواب الله تعالى.

..وهذه بعض مواقفها المشرفة:

..ففي عام ١٣١٨ للهجرة[١٨٨٩م]:حصل بين الأمير عبد العزيز بن متعب الرشيد[ت:١٩٠٦] وبين حاكم الكويت مبارك الصباح [١٨٣٨-١٩١٥] معركة هائلة في مكان شمالي القصيم يسمى(الصَّرِيْف)،وبعضهم يسميه (الطَّرْفِيَّة)، فصارت هزيمة منكرة على ابن صباح وأتباعه الذي يبلغون اثني عشر ألف مقاتل وصار في جيش مبارك الصباح قتل ذريع، وهربت فلولهم في الصحارى،وبلدان القصيم فقسا عبد العزيز بن رشيد على تلك الفلول وصار يقتلهم صبراً إلا من لجأ منهم إلى عنيزة،فإن أسرة البسَّام حموهم من القتل بجاههم عند ابن رشيد وصارت تلك الفلول الكثيرة من أهل الكويت،ومن أتباع ابن صباح من غيرهم في ضيافة البسام.

..وصارت هذه المحسنة تكسوهم وتعد لهم من النفقة ما يوصلهم إلى أهلهم وتستأجر لهم الإبل كل رجلين أو ثلاثة على جمل حتى وصلوا أهلهم سالمين.

..وفي عام ١٣٢٧ للهجرة[١٩٠٧م]:أصاب بلدان نجد[سنة الجوع] مجاعة شديدة ومسغبة أليمة وأكلوا المستقذرات من الحيوانات وطاح الفقراء بأيد الأغنياء فصار لها دور كبير في تقسيم الأرزاق من الحبوب والتمور فتفرقها على البيوت وتجعل من يقف في طرق أصحاب المهن البرية فتغطيهم،وأنفقت في ذلك الأموال الطائلة،وكانت تتولى الإشراف بنفسها على ذلك فقد حدثني كثير ممن عاصروها أنهم يرونها تتابع الخدم في توزيع الأرزاق على البيوت.

..وفي عام ١٣٣٧ للهجرة[١٩١٧م]:أصاب الناس وباء يسمونه (سنة الرحمة) لحُمَّى أردت من الموتى كثرة أفنت الناس فإن بعضهم البيوت وبعض الأسر ماتوا عن آخرها وشغلت نفسها وأتباعها بتجهيز الموتى بخيطهم وأكفانهم وقبورهم،رفع الله الوباء عن البلدان.

..أما موقفها في الشهامة والحزم:ففي إحدى السنين مر الإمام عبد الحمن الفيصل بضواحي عنيزة فأرسل إلى أمرائها يطلب مبلغاً من النقود فاعتذروا بأنهم هم لا يجدون شيئاً والبلاد لا تتحمَّل أن يفرض عليها ضريبة فقد أنهكتها الحروب وكانت عنيزة خالية من أعيان البسَّام بعد فتنة السطوة [١٩٠٢](٤٤)على البلدة فما أن علمت بالأمر حتى باعت مصاغاً لديها وأرسلته إلى الإمام عبد الرحمن ومعه خطاب منها تذكر له "بأنكم مررتم البلاد وليس فيها من رجالها من يقوم بواجب ضيافتكم وقد أرسلنا لكم هذه النقود القليلة ضيافة لكم".ومن حزمها أنه كان يوجد أمام مزرعتها المسمَّاة(السُّفَيْلي)أرض بيضاء وكانت مرفقاً لبستانها قد جعلته بيدراً للمزرعة.وكان جيرانها طامعين في هذه الأرض مستغلين ضعف المرأة وغياب رجالها،فسمعت أنهم يريدون الاستيلاء عليها،وفي ليلة من الليالي أرسلت إلى المواطن الشهم عبد العزيز الغرفاني،وقالت: الليلة الآتية بعد صلاة العشاء عمم على أهل حي الخريزة(٤٥)في مسجدهم بأن عليهم أن يخرجوا إلى تلك الأرض ويتوزَّعون العمل لإحيائها في تلك الليلة فبعضهم يسوق إبل السواني لإخراج الماء من البئر ،وبعضهم يمسح الأرض، وبعضهم يخططها حياضاً وسواقيَ،وبعضهم يبذر الأرض ويسقي البذر ،وبعضهم يحيط الأرض بسور صغار من سعف النخل.

..وبعضهم الآخر يعد لهم العشاء والشاهي(٤٦)والقهوة فلم يمض نصف الليل إلا وهم قد أنجزوا مهمتهم وأحيت الأرض وسورتها.فلما أصبح جيرانها لم يصدقوا هذا كله عمل بليلة واحدة.

..ومن مروءتها وإحسانها مقابلتها الإساءة بالإحسان أن السيل دخل مدينة عنيزة عام ١٣٢٢ للهجرة [١٩٠٢]،فهدم كثيراً من بيوتها،ومن البيوت التي سقطت بيت عائد الصقيري،وكان ممن نهب بيوت أهلها وكسر أبواب

منازلهم،فأعاد عمارة منزله،إلا أنه بحث عن خشب طويل مستقيمة فلم يجد إلا خشباً لها محيطاً في بستانها،ولكنه عرف ذنبه معها ومع أهلها فذكر حاجته إلى ذلك الخشب،وذكر موقفه المشهور منها فهاب طلبه منها ولو بالشراء وقد علم بهذا الأمر الملك عبد العزيز [١٨٨٠-١٩٥٣] فقال له:"اطلبه منها وستجد منها ما يسرك"،فتجاسر وذهب إليها في منزلها واستأذن عليها فلما أخبرت به أذنت له في الدخول فدخل عليها بكل خجل وعرض عليها طلب شرائه منها فقالت:"اقطعه مساعدة لك على بناء بيتك"،فلما جاء عند الملك عبد العزيز سأله عن دخوله عليها،وما جرى منها له،فقال:"يا طويل العمر إذا جاك(٤٧)ولد فلا تسمِّيه إلا موضي" (٤٨).رحمه الله تعالى(٤٩).

..فلها مواقف كثيرة مشرقة لا تصدر تلك الأعمال الطيبة إلا من خلق كريم جبلها الله عليه،وهي تريد به وجه الله والدار الآخرة.

..وقد أدركتها-يقول المؤرخ البسام-وكنت أذهب إليها مع والدي لتهنئتها بالأعياد والمناسبات وبقيت متمتعة بكامل حواسها وأفكارها حتى بلغت مائة عام،فإنها لم تتوفَّ إلا عام ١٣٦٣ رحمها الله تعالى"،وبهذا تنتهي هذه المروية الشفوية،وهي نموذج لما نسمعه من نساء عنيزة،أو نجد في العموم،عن شخصيات سابقة من قريباتهن أو شخصيات ساهمن في المجتمع.

//عنيزيات المستقبل:

..عندما بعثت نسخة من كتابي:"سحَّارة الخليج-٢٠٠٦"،إلى سناء الخرَّاز،هو مهدى إليها بعبارة:حورية البحر ومنذورته،حيث كتبت عنها دراسة:"يا محَّار الخليج ورداه:استعادة ذاكرة بحرية،وافتتحتها:"طوال فترة الثمانينات الميلادية القاذفة لروحها في مهبِّ القرن الماضي قبل قليل من الأعوام،كنا في فضاء تلقُّنٍ ثقافي أو تشكيل-ما أحسنه..!-،الآن،أذكره هذه الأيام يتداعى كله..

..كان جَدِّي إبراهيم،المعتَّق برائحة النجديين في البصرة و الأجداد الذين ذهبوا إلى بَمْبَي(بومبي في الهند) و مروا أسوار شيراز في بلاد السجاد حيث زرع في ألسنتنا بعض الكلمات الإيرانية من التحايا و كتب بخطه الجميل المتألق بالرقعة أسماء مدن فلسطين التي زارها قبل ١٩٤٨ و علَّمنا أناشيدنا و مرات يسلِّينا فيرْدَحُ معنا يرفع ركبةً و يخطو ثم يتلو بالثانية هذا ما عرفته فيما بعد من رقصة البدوية التي عرفها في الكويت:"اعْزِفْ،يا شاعر،و الربابة لِكْ ضلوعي/خلَّ الغناوي كِلِّ شوقي يشيلنَّه.."

..كان يُحْضِر لنا في كل زيارة من الكويت/نجْد البحرية كما أسماها الرحالة سنت جون فيلبي(أو عبد الله فلبي)، تسجيلات الحفلات الوطنية الكويتية التي تقنن من مشاهدتها عمتي منيرة،مُرَبِّيتُنا أنا و أخي و ابنة عمي،حيث تتهافت نفانيف (فساتين)الخليج،الدراريع(ملبوسات) والسَّدْو،رقصة الزَّفْن في فن الصوت تلك الذخائر منها عوَض دوخي و شادي الخليج،غنام الديكان وأحمد باقر،سناء الخرَّاز وأغنيات الغربة لعبد الكريم عبد القادر..

..لم تتمحِ من ذاكرتي مغناة:"مذكرات بحار-١٩٧٩"التي وضع أشعارها الشاعر محمد الفايز،وأوْضَب ألحانها غنام الديكان.محتويةً الألحان،صوتا:شادي الخليج وسناء الخرَّاز..

..لماذا اشتعل الآن تذكُّري لها..؟.

..كنا صغاراً نطالع سناء الخراز التي كانت صغيرة و نحيلة تشبه كل الأطفال و إن كانت تكبرنا،لكن الشاشة تُطْلِعُها صغيرة تشبهنا،و قاعدة الميكروفون أطول منها و ملابسها أوسع منها..،لم تكن غريبة عنا دمها نجدي طافح بندى بحري طارئ،لكنها تملك صوتاً يُرْقِصُنا..بل عجننا و صاغ كثيراً من وجداننا دون أن ندري.

..الآن،أذكرها لقد رأيتها قبل أيام تعيد إنشاد:"مغازل الخير دوري–عاشوري"(٥٠)إنما مع الابن سليمان الديكان،موزعة جديداً يشارك العزف على الناي سليمان نفسه..

..كبرت،و الشعر الطويل قصر محسن الجوانب،لكنها لبست التور ذلك اللباس الرامز لسيدات البحر، ازداد الوجه على ابتسامته و نشوته بالغناء بعبق أسى لا يرى لوهلة أولى.قل ضغطها على حرف العين،الملاحظة التي تنفر خالد الشيخ منها،و غاب الإيقاع نفسه تاركاً للصوت مساره في اللحن الجميل و للأذن التي تلقنت سابقاً أن تتعاون في السمع الجميل.

..بقيت في ذاكرتي تتحَفزُ وتتوقَّد لوحة الدعاء طالبات المدد و التصرُّف(٥١) بإيقاع فن القادري–رفاعي (٥٢):"بسم الله"موصولة بقادري–بحري"دَعْهُم يعودوا"..

..تغني سناء مستصرخة الوليَّ عبد القادر الجيلاني،المتوفى ٥٦١هجرية–١١٦٥م،مؤسس الطريقة القادرية أو الكيلانية(٥٣)..بتضرَّع كل ما يقوله مقام البياتي/العزاء حسب المسمَّى السرياني(٥٤) من فعل بيَا/Baya:

"بسْمِ الله..عَبْد القادر شِيْ لِلَّه..و قولوا:يا الله

يا ربُّ،يا مَلِكَاً تعَالى في سَمَاه..

بسْمِ الله..عَبْد القادر شِيْ لِلَّه.. و قولوا:يا الله

يا أيُّها الأبديُّ،يا نوراً يرانا و لا نراه.."(٥٥)

..حدثتني سناء الخراز عن أصل عائلتها،فهي تنتمي إلى عائلة البريدي،و ذكرت لي أسماء أقاربها من العائلات في عنيزة،وأخبرتني أنها تسكن في حي اسمه:الفيحاء،وهو أحد أوصاف عنيزة قديماً.

..مما كانت استغربته،هو أن يأتيها الاعتراف المعنوي بفنها و دورها الثقافي،من خارج الكويت،فأوضحت لها أن لنجد الصحراء نجد البحر،ولعنيزة فيحاؤها في الكويت،وأخبرتها عن تلك النسوة اللواتي تحدثن عنهن: رهيطة المعلمة ونورة الهطلاني الشاعرة،والمحسنة موضي البسام هن جداتها الثقافيات اجتماعياً،وهي مدينة لهن حتى لو كانت خارج المكان،فيه مغروسة فيه،هاهي كما ذكرت نقلت دور المرأة في طقوس الفنون وشعائرها،بمختلف دورها الوظيفي،سواء الديني في نصوص التصوُّف صوب الأولياء،أو العلماني (الدينوي) في غناء الربابة وأشعار العاطفة بأنواعها ودرجاتها.

..لقد أخبرتها أن المدن لا تسأل إلا عن نسائها،فأول درس حضاري يؤخذ من المرأة،وهي المعادلة طوعاً للمدن والحضارات،ولعلنا نذكر صدى ذلك في شعر سعاد الصباح،من قصيدة:"درسٌ خُصُوصيٌّ" حين تقول لمن يجهل ذلك:

"فَرْقٌ كَبيرٌ بَيْننا،يا سَيِّدي!

فأنا الحَضَارَةُ والطُّغَاةُ ذُكُورُ.."(٥٦)

//ظلماء،هل تعودين؟:

..كنت أنجز هذه الدراسة وتدخل أختي الصغرى لبنى ذات السنين المشارفة للعشر سنوات،وهي تريني عباءة سوداء طرزت بالقيطان الملون في ظهرها وأكمامها،وتخبرني أن اسمها عباءة ال:Patman،ذات أردان تشمل طول قوامها،وهي تطوير لعباءة برقا(٥٧) مدموجاً بثوب متفَّت(٥٨)،وأنها كانت اختارتها تفضيلاً على عباءة الفراشة ذي الأردان المذيلة(٥٩)،إلا أنها بصعوبة أقنعت صاحب المحل ليريها التصميمات الجديدة للعباءات في أحد المشاغل المختصة،وتقول أن رجال الهيئة(٦٠)يمنعون تلك العباءات ذات التصاميم المتنوعة والمزينة بالتطريز والشك.كانت تتحدث بغضب من أن يتحكَّم أحد بعباءتها،وهي ستنفذ ما تريده ويعجبها،كسراً للمثل الذكوري:"إلبس ما يعجب الناس وكل ما يعجبك!" كذلك أختي الكبرى كانت تحدثني قبل يومين عن حوار عاجز بينها وبين زوجها الطبيب عبد العزيز الذي يطلبها لبس حجاب في سفرهما إلى ماليزيا،لتكاثر الخليجيين،حين رفضت عرض عليها مقايضة خائبة أن تلبسه مساءً حين يكون زحاماً من الخليجيين وتخلعه نهاراً حيث يكون نومهم!.سألته ما سبب طلبه،فأجاب أنه لا يريد أن يرمى كلام عليها إذا ما وافقهم أحداً وعرف بأنهم من الخليج،والسعوديين بالأخص،فقالت: ألست –أنت–تتكلَّم على النساء في الفضائيات بشكل سلبي،فأنت من هؤلاء أنفسهم،فصمت

..ربما لن تكون مناسبة أن أنتهي من هذه الدراسة دون أن أذكر،بأن المرأة لم تتنازل عن حق وجودها لكونها توفي أبسط واجباتها وأعظمها قدراً لهذا الكون وهذه الحياة،وهو واجب الولادة إلا أن مبادئ التحولات الحضارية من عصر العهود الأمومية نحو الأبوية في اكتشافه أن ماء قضيبه وراء تلك النطف التي تحشد في قناة رحم الأنثى ما جعله يتوهم أنه الإله الأوحد،وهي لم تصمت بل تهزأ وتعرف أن رحمها هو من يقرر قبول أو رفض تلك النطف العمياء في مائه.

..حين تستشري ،وهي كذلك،هذه"الألُوْهيَّة المَشْيَخيَّة"،لا تَبْرَأ من أن يبقى في هواجسها خرافة ظلماء (٦٠)،وهي المرأة التي طردت من المدينة وعاشت في غار،وصارت تتغذى على اقتناص المسافرين،فهي تقتنص من تريد وتهوي بحصاة عليه لتجهز على قتله وعده وليمة،وهي لا يخفى أن رمزية المرأة ظلماء، بحسب تفسير الأحلام والكوابيس نفسياً(٦١)،تشير إلى الليلة الظلماء أي اختفاء القمر(٦٢)،وهو رمزية الخصب الجنسي،والحصاة هي إشارة معنى ولادة أو موت،مثل قدح النار أو بناء عتبة بيت أو بناء مذبح أو تسوير بئر،لكنها تعبر عن استلاب دور المرأة الحقيقي،وهي إشارة إلى سيرورة النفس وتحولاتها وتحررها (٦٣)التي ليس تتم ما لم تكن بذات القوة في نضالها نحو استعادته وتحويل سير إناث سابقات كشخصيات العنيزيات المُقْمِرات نماذج استلهام تنقضها وتبني منها ما يمكن أن يجعل كل أنثى تغرس بيديها أولى منابت الحضارة الإنسانية بعد كل هدمة ذكورية ربما كان المستقبل يحمل أجنة واعدة.

----

*عنيزة:تقع في الوسط الشرقي من نجد في إقليم القصيم،وهي قصبة الجزيرة العربية اقتصادية تصل الخليج العربي بالبحر الأحمر،وسبب التسمية يعود إلى تصغير عنز:أي،الأكمة السوداء.لكونها تقوم على تكوينات صخرية ورملية،يمر بها وادي الرمة الذي جعلها بعض منطقتها زراعية،وتعود بعض الآثار المكتشفة فيها إلى ما يتجاوز بضعة قرون قبل الميلاد،ربما تحمل علاقات توطن طسم وجديس،وهما من بقايا ثمود.بدأ تاريخها

السياسي المدون بتكونها من أحياء أو دِيَر :الجناح،الخريزة،العقيلية والمليحة،واتحادها كان النواة لتكوين عنيزة حيث يكشف ذلك أن اسم المنطقة معروف لساكنيها،واستعيد نتيجة الدمج بين الأحياء لا بغلبة اسم أحدها،وهي الآن مدينة كبيرة من مدن إقليم القصيم.في المملكة العربية السعودية.عنيزة،محمد السلمان، سلسلة هذه بلادنا:٢٣،الرئاسة العامة لرعاية الشباب-١٩٩٨،ط:٢،ص:١٥-,٥١

١-مروية بلسان جدي لوالدي إبراهيم الواصل(١٩٢٣-٢٠٠٣)وهو راوية شفوي ممتاز لسوالف(قصص) وشعر نبطي (المحكية النجدية)،ساعدته رحلاته للعلم والعمل،في مدن الخليج:الكويت والمنامة، فالعربية :البصرة والقدس ثم إيران والهند على تكوين شخصية أسعفته في صقلها ذاكرة وموهبة قصص نادرتين، حيث حمل وصف"العملة الصعبة"بين الرواة الشفويين في نجد.

**الخرَّاز لقب صنعة،فيما تنتمي سناء إلى عائلة البريدي من عنيزة،وهي مولودة في الكويت،ودرست بمدارسها وتحمل شهادة عليا في الإدارة والسكرتارية،وبدأت الغناء في سن صغيرة عبر النشاط الطلابي ١٩٧٧ لثانوية كيفان التي تدرس فيها آنذاك،وصارت المغنية الأولى في الأوبريتات التي تقام كل عام

بمناسبة اليوم الوطني الكويتي.سحَّارة الخليج:مقدمة ودراسات في شؤون غنائية،أحمد الواصل،دار الفارابي-٢٠٠٦،ص:,٨٩

٢-النساء العربيات في العشرينيات:حضوراً وهوية،تجمع الباحثات اللبنانيات،بحوث المؤتمر(٢٠-٢٤ أيار،٢٠٠١،المركز الثقافي العربي.

٣-عنيزيات-التركي،المصدر السابق،ص:,١٠٩

٤-عنيزيات-التركي،المصدر السابق،ص:١٠٩-,١١٤

٥-عنيزيات-التركي،المصدر السابق،ص١١٤-,١١٦

٦-عنيزيات-التركي،المصدر السابق،ص:,١١٧

٧-عنيزيات-التركي،المصدر السابق،ص:,١٢٢

٨-انتشار المذهب الوهَّابي سياسياً،عبر تنظيمه الإيديولوجي والعسكري،نهايات القرن الثامن عشر الميلادي،منذ في لحظات تاريخية أمعنت الصدف واستثمارها،بالقفز على التراكم الزمني والتآمر على مصالح المكان وأهله،قاد تحولاً ارتكاسياً ساهم فيه هجرة جماعية معارضة،ولا يمنع الخوف من الأوبئة والمجاعات دافعاً،من تجمعات قبلية كاملة زاحفة نحو الشمال(الزبير وبادية سوريا)والشرق(البصرة، الكويت ،قطر والبحرين)من الجزيرة العربية،قدْرَ ما أعطت تلك الهجرة،سواء للسكن أو التجارة والتعليم، مكاسب للمكان ولأهله الجُدُد،أفقدت المكان المهجور علاماته الحضارية وأفقرته بإنقاصه نحو فجوات في التاريخ ولحظات ظلام تعطل فيها الزمن.يُسجَّل بعض تلك الظواهر مؤرخون معاصرون.خزانة التواريخ النجدية، تحرير:عبد الله البسام،طبعت في بيروت-١٩٩٩،الجزء:الرابع،تاريخ نجد ابن تركي(عبد الوهاب بن محمد،ت:١٢٣٧/١٨٤٧)ص:١٣٧-١٨٤.أما المدونة الثانية،في الجزء السادس،مختصر مطالع السعود بأخبار الوالي داوود،ابن سند(ت:١٢٥٠/١٨٦٠)اختصرها:أمين الحلواني،ص:٢٣٩-٣٣٣.

٩-لا نستطيع إطلاق ذلك تماماً على اعتبار أن نجد خلال القرون الثلاثة الأخيرة،عاشت زمن الإمارات ،أي:المدينة-الدولة،التي تحققت في:إمارة حائل،إمارة عنيزة وإمارة بريدة،ولا ننسى أنه عبر التاريخ العربي القديم لها عاشت نجد عهد إمارات أقدم:إمارة الخضرمة(زمن القرامطة)،وإمارة الرياض(زمن آل معمر).مدينة الرياض:عبر أطوار التاريخ،حمد الجاسر،دار اليمامة-١٩٦٦،ص:٩٦-١٠٠,

١٠-سنت الحروب الأهلية في إقليم نجد،حماقة الفتن السياسية وأعراف الغزو والإغارة،منذ عهد القرامطة. الحشيشية:الاغتيال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية،برنار لويس،ترجمة:سهيل زكّار،دار قتيبة-٢٠٠٤، ص:١٤٦-١٤٧،ولا غرابة أن يقيم تلك السنن الاحترابية من غايته تبرر الوسيلة.

١١-نستطيع اقتراح دراسة اعتمدت على الذاكرة الشفوية بموازاة البحث المعرفي فإمارة مدينة حائل بانورامياً،عبر ما ألفه فهد العريفي،ضمن سلسلة هذه بلادنا:١-حائل، الرئاسة العامة لرعاية الشباب-١٩٨٨،ط:٢.أو الاطلاع على أطروحة تحمل بعدها الأنثروبولوجي:السياسة في واحة عربية:إمارة آل رشيد،مضاوي الرشيد،دار الساقي-١٩٩٨,

١٢-نستطيع اقتراح دراسة تاريخية-اجتماعية عن إمارة مدينة عنيزة من سلسلة هذه بلادنا:٢٣-عنيزة، محمد السلمان، الرئاسة العامة لرعاية الشباب-١٩٩٨،ط:٢.فيما توفرت دراسة سوسيولوجية: عنيزة:التنمية والتغيير في مدينة نجدية عربية،ثريا التركي-دونالد كول،ترجمة:جلال أمين-أسعد حليم،مؤسسة الأبحاث العربية-١٩٩١,

١٣-الخوف من الحداثة:الإسلام والديمقراطية،فاطمة المرنيسي،دار الجندي/دار الباحث-١٩٩٤، ص:١٤٧,

١٤-وهو التنظيم العسكري الذي أعده الملك عبد العزيز آل سعود،من توطين أبناء البادية واستخدامهم جنوداً لإنجاز مهمة توحيد الأقاليم الطامح في استعادتها من ملك أجداده.الإخوان السعوديون،جون س.حبيب،ترجمة:صبري حسن،دار المريخ-١٩٩٨,

١٥-لا يخفى أن الأديان التوحيدية:اليهودية،المسيحية والإسلامية،ضمن تأسيسها الزمني نحو زمن ديناميكي(فعال ومتحرك نحو نهاية)،فالحركات التصحيحية(بمسمى الإصلاح والتجديد) لإيديولوجيا(القوامة العقائدية)في صيغة الصدوقية أو الأرثوذكسية أو السنية،وبمختلف المذاهب المنشقة منها وعنها، تستعيد ضمن آلية فهم الزمن ذات البداية لانتظار النهاية:البعث(اليهودية)،اليوم الأخير(المسيحية)، والقيامة (الإسلامية).هذه الزانية التي اعترفت زمن محمد عبد الوهاب،تستعيد مشهد المرأة الغامدية التي اعترفت بزناها زمن الرسول محمد.تاريخ نجد،حسين بن غنام،دار الشروق-١٩٩٤،ط:٤،ص:٨٥,

١٦-البرقع:لباس للمرأة،يربط ذراع منه في مؤخرة الرأس فيما يغطي الجبين،ويكشف العينين بحاجبيهما ،فيما يرخى مغطياً من الأنف صوب النحر.يستخدمنه بنات البادية.هناك نوع آخر،اسمه:بطُّولة،لدى بنات البادية القرييات من البحر لا يتجاوز أن يغطي الأنف،منتشر في الخليج:قطر والإمارات العربية المتحدة.
معجم التراث:اللباس،سعد بن جنيدل،مطابع الحميضي-٢٠٠٥،ص:٢١,

١٧-الغطوة:خمار من أنواع القماش،غلب الأسود،ومنه ملون باسم:جلال،ليوضع على الرأس،مثل المنديل الذي يلف على رؤوس بعض العربيات في الحواضر الشامية والمصرية،لكنه يترك منسدلاً على الرأس والكتفين،ومرات يلف أحد أذرعته على الكتف الآخر تصليبياً،وهو مواز للعباءة إنما داخل البيت أو المزارع و بيوت الشَّعَر حيث

لا يلزم المرأة غطاء الوجه من غريب أو ضرر مناخي،ويسمى بين بنات الحضر في نجد:الشيلة أو على أطراف الخليج:القناع،ويسمع من البدويات:غدفة،وهو نطق آري منتشر في شمال الجزيرة العربية:حيث ترقق الطاء دالاً،وتطبق الواو فاءً.معجم–جنيدل،المصدر السابق،(مادة شيلة،ص: ١٥٢)،(مادة غدفة،ص:١٩٢)،(مادة:قناع،ص:٢٠٥).

١٨–العباءة:كساء للجسم،للذكور والإناث،له نوعان بعضه من الصوف أو الوبر الأسود،وصار يفرق بين مشلح للذكور وعباءة للنساء،فيما يستخدم الاسم الفارسي:بشت بالتناوب بينهما.حدَّد طوله التأثر العربي باللباس النسائي الفارسي:الشادور معجم–جنيدل،المصدر السابق، ص:,١٧٥

١٩–أبَّان،مثنى(أبٌّ)مشددة،إفراقاً عن دمج الأم والأب معاً،في تثنية التغليب:أبوان.أما مسألة الرضاع: ظاهرة بشكل كبير في نجد لأسباب عدة،كالخوف من المجاعة وعدم در الحليب من أم الرضيع،و قد سببت في بعض الأحيان،لكونها تعيد صياغة القرابة،قطع أمل الزواج بين رضيعين،لكونهما أصبحا أخوي رضاع، وهذا هو حاصل،لوالدتي أعمام من الرضاع هم في الأصل أبناء عمها،ولوالدي إخوة من الرضاع هم أخواله،من جدة أخرى:منيرة الطعيمي،وأذكر أننا كل عيد فطر غالباً،ما قبل العشر سنوات،عندما نزور عنيزة، يسلِّم والدي على مجموعة من النساء كبيرات يكشفن عنه غطاء الوجه،والسبب علاقات أمومة وأخوة ،سببها الرضاع.

٢٠–المشراق:مكان جلوس خارج المنازل،على دكة من الجص(مصطبة)،لتلقي أشعة الشمس شتاءً.أما الحسو:البئر، جمعها:الأحساء،وهي أفنية مسوَّرة في جانب البيوت أو جهتها الخلفية،عادة،يستخدم البئر للسقيا والوضوء،ومكان اجتماعي نسوي خاص،تلتقي فيه حالات التواصل اليومي سواء العلاقات الاجتماعية من قرابات وصداقات أو خدمات لمناسبة وبيع مصنوعات.

٢١–هذا لا يتجاهل حقوق نساء أخريات،ساهمن في إقليم القصيم:الرس وبريدة،أو في حائل،في مدن نجدية أخرى:ثرمدا وحريملا من الاعتزاز بأدوارهن الاجتماعية والثقافية،وهي محل اعتبار من الدراسة ،لكن لدواعي الإعسار البحثي سوف يشار إلى ذلك في محله.

٢٢–ربما يكون كُتَّاب رهيطة(نورة الرهيط)،وهو الاسم المتعارف عليه بين طالباتها،أحد آخر كتابات المعلمات على النمط القديم ما قبل النمط النظامي الذي افتتحت أول مدرسة فيه–١٩٦٠،لكن هناك كتاتيب معلمات أخريات سبقنها:عائشة السويل،بلالة(فاطمة البلال)،نورة الحميدان،(جبرة)حصة الجبر، (دعيجة)نورة الدعاجا،(أم الحمادى)منيرة العلي،قعيسة(نورة القعيس)و (دحيمة)منيرة عبد الرحمن السَّلُّوم.حتى أن خدمة موضي الدامغ كمعلمة وصلت مكة المكرمة يوم أسست كتاباً في شعب بني عامر.عنيزة–السلمان،المصدر السابق،ص:,٩٥

٢٣–نساء شهيرات من نجد،دلال الحربي،دارة الملك عبد العزيز–١٩٩٨،ص:١٤٦–,١٤٧

٢٤–وهي التسمية الدارجة على المعلِّم طوعاً(متطوعاً)،ولاقترابه من الدعوية الدينية،وهي توازي كلمة مرشد وموجه،التي جعلت من هذه المفردة تذهب إلى وظائف قطاعات أخرى،في العصر الآني:موظفو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.فيما تستخدم مؤنث الكلمة:المطوعة،وفي شرق الجزيرة العربية: المُلاَّ والمُلاَّية،وهي توازي المنشد(ة) والقارئ(ة)في حسينيات المذهب الشيعي،وتسربت الكلمة لعاقد الأنكحة في الكويت والعراق.

٢٥–عنيزة–السلمان،المصدر السابق،ص:,٧٥

٢٦-يذكر التاريخ السياسي،المعلمة فاطمة ابنة محمد بن عبد الوهَّاب(أوائل القرن التاسع عشر) التي علمت رجالاً ونساءً،وهناك معلمات أخريات:كُتَّاب نورة الحجي في ثرمدا(إقليم الوشم)في(ثلاثينيات القرن العشرين)،كُتَّاب موضي الحمد في حريملا(أربعينيات القرن العشرين).نساء-الحربي،المصدر السابق، (فاطمة،ص:١١٠)، (نورة، ص:١٥٦)،(موضي،ص:٩٨).

٢٧-وصف الشاعر علي الخياط،معركة المطر ١٢٧٩-/١٨٦٣)بين جيش فيصل بن تركي،أمير الرياض، وجيش أهل عنيزة،فرسم مشهداً إضافياً على القصيدة،المغناة على قالب عرضة الحرب،لفتاة من عائلة البسام فقدت إخوتها الثلاثة في المعركة،وهب ابنة عبد العزيز السليمان البسام،فيصفها الخياط:

"جَتْني تخطَّى ما عليها لوم/تسحب ثياب القَزّ والقِيْلان

تبكي وتمحش دمعها بكوم/من فوق خد كنها الرُّمَّان

شبَّهْتَها بدْر سِطَعْ بنْجُوم/سُبْحَان خلاَّقَهْ عَظيم الشان

ذَهْلَتْ غَطاها يوم جَتْها علوم/إخوانها مع جملة الجيران!"

..القز: نوع حرير نسائي،القيلان: عباءة مطرزة الجيب،تمحش:تمسح،ذهلت:جدعت،غطاها:غطوة الرأس، جتها:جاءتها،علوم:أخبار الموت.راعي البندق:الخيَّاط،عبد الرحمن البطحي،مخطوطة.

٢٨-طلقت الشاعرة موضي الدهلاوي(ت.١٨٤٤)لكتابتها قصيدة شوق إلى زوجها بسبب سفره رعياً، ولكونه ينتمي لقبيلة عنزة،فيما هي تنتمي لقبيلة العجمان،ما جعل أهلها غير راضين عن زواجهما:

"يا الله يا مُوصِّلْ غريبٍ بلادَهْ/يا مجريٍ سفن البحر فوق الامواج

تريح قلبي في مظنة فؤادَهْ/إن كان ما طاوع بنا كل هرَّاج

أمي توصيني تقول:الجلادَةْ/قلبي إذا جا طاري البدو ينفاج"

..هرَّاج:نمَّام،الجلاة:طلب التجلد صبراً،جا:جاء،طاري:ذكر،ينفاج:يرتاح.شاعرات من البادية/ج:١،عبد الله بن رداس،دار الشبل-١٩٩٢،ص:٢٩٤-,٢٩٥

٢٩-الشاعرة نورة الحوشان،من سكان عين بن قنور في جنوب نجد،تطلقت من زوجها لاختلافهما بسبب عقمها،وقالت قصيدة عن حالها تذكر حياتهما وتضرب حكمة استحالة لقاء المحبين:

"يا عين هِلِّي صافي الدمع هِلِّيه/و إذا انتهى صافيه هاتي سريبه!

يا عين شوفي زرع خِلِّكْ وراعيه/شوفي معاويده شوفي قليبه

إن مرني بالدرب ما أقْدَرْ أحاكيه/مصيبةٍ يا ويِّ والله مصيبة

اللي يبينا عيَّت النفس تبغيه/واللي نبي عجْزَ البخت لا يجيبه!"

..هِلِّي:اذرفي،سريب:الحثالة،خلك:صاحبك أي:زوجك،معاويد:الإبل المعدة لسقي الزرع من البئر، القليب:البئر، يبينا:يريدنا، عيَّت: رفضت،البخت:الحظ أو القدر.شاعرات-ردَّاس،المصدر السابق،ص:,٢٩

٣٠-معركة وقعت بين حسن المهنا،أمير بريدة،وزامل السليم،أمير عنيزة،ضد محمد بن رشيد أمير حائل، انتهت بخديعة قضت على حاكم بريدة واستسلام جيش عنيزة.خزانة-البسام،الجزء الخامس،المصدر السابق،ص:,١١٧

٣١–ديوان الدرر الممتاز من الشر النبطي والألغاز،جمع وإعداد:محمد الهطلاني،مكتبة الموسوعة بعنيزة–١٩٩٠،ص:٢٠٤.أما معاني الكلمات،هيَّض:أثار،عجماء:ناقة،ولف:إلف،نعبها:صياحها،ولِّي:اسم فعل يفيد التعجب،خلوج:الناقة فاقدة ابنها الحوار،هودي:اهدئي،ارجهني:اطمئني،يدراه:يصيبه ويعرفه،طرياه: طارئه أي:خبره.

٣٢–ديوان الدرر –الهطلاني،المصدر السابق،ص:٢٠٤.أما معاني الكلمات،بكوة:صيغة فعلة من بكاء،جزت: امتنعت،ألا واعناياه:يا لَعَنائيَهْ،ديرة:بلدة،تذرينِّي:تذري النفس روحها عن جسدها استعارة من ذَرْي الريح للحنطة بفصلها أثناء تنقيتها من التبن.

٣٣–علي الثويني (الخيَّاط)(ت:١٢٩٤/١٨٧٨)قال قصيدة،على قالب عرضة الحرب،أثناء حصار عنيزة ١٨٥٤ من قبل عبد الله بن فيصل،أمير الرياض،زمن الإمارة السعودية الثانية،وبيتها الدفاعي مشهور:

"هذي عنيزة ما نبيعَهْ بالزهيد/لا فرَّعن البيض نحمي جالها"

..نبيعَهْ:نبيعها،في لهجة القصيم،يقصر ألف هاء الضمير المؤنثة،مثل الشآم:سوريا ولبنان.الزهيد:الأرواح والدماء.فرَّعن البيض:كشفن النساء،وهي طريقة لاستثارة الحمى.جال:حدودها.راعي البندق–البطحي، المصدر السابق،ص:٧,

٣٤–ديوان الدرر –الهطلاني،المصدر السابق،ص:٢٠٥.أما معاني الكلمات،الضلفعة:موقع المعركة،حزة: وقت،واحسايف:عبارة أسف.زمول الأوادم:جِمَال الفرسان.كون:معركة.

٣٥–المسحوب:يعادل بحر السريع(مستفعلن مستفعلن مفعلات)،وهو مشتق من بحر الهلالي(أو الطويل)،و صفة غنائه:يسحب القوس على الربابة سحباً،فيجر القوس على الوتر،ويسحب العازف يده ونفَسه إلى الوراء في حالة الغناء.إذ اعتيد محاولة امتزاج صوت مغني الربابة بصوت أوتارها مسحوباً عليها القوس.الموسوعة النبطية الكاملة:بحور وأوزان الشعر النبطي/ج:٢،طلال السعيد،ذات السلاسل–١٩٨٧،ص:١١٢–١١٣.

حيث كان يجيد ذلك عبد الله فضالة(١٩٠٠–١٩٦٧)سحارة الخليج،:مقدمة ودراسات في شؤون غنائية، أحمد الواصل،دار الفارابي–٢٠٠٦،ص:٥٠,

٣٦–يذكر أن مويضي البرازية(ت.١٨٥٠)،من قبيلة مطير،كانت مجيدة الغناء وفنون الشعر النبطي،وتعرضت للضرب من أحد عبيد،فيصل بن تركي،أمير الرياض،يدعى العبد:سلامة،وقالت قصيدة تناجي حمامة أوصتها بالاستجارة(أو اللجوء)إلى بلد الوداعين من قبيلة الدواسر،لكونهم سيحمونها:

"إن كان ودِّكْ بالطَّرَبْ والسلامة/عليك بالفَرْعَةْ ديار الوداعين

تنحَّري ربْعٍ تفك الجهامة/فكَّاكَة القَالات بالعِسْر واللِّين"

..معاني الكلمات،الفرعة:بلد الوداعين من الدواسر،بعض منهم توطن نهاية القرن التاسع عشر بريدة والربيعية من إقليم القصيم.تنحَّري:اقصدي.ربع:قوم.تفك الجهامة:تحمي الإبل.القالات:المشاكل.شاعرات –ردَّاس،المصدر السابق،ص:١٨٩–١٩٩,

٣٧–يختلف على هذا النص بنسبته مرة إلى نورة الحوشان،وأخرى لنورة الهطلاني إلا أن لهجته القصيمية بادية للعيان من خلال قوافي صدور النص:يكوين(ي)،يشوين(ي)و تبغين(ي).إذ يوقف الفعل المضارع(من الأفعال

الخمسة)بضمير المخاطب المفرد على نون الوقاية حيث ورد هذا في النص القرآني الكريم:" أكرمن،أهانن"من سورة الفجر(١٥-١٦)،و استخدامها للفظة:هيش،من أدوات النداء غير المعينة الجنس، إلا باستخدامها،وهي من المعجم البدوي،وتركيز صياغة البيت الشعري باستخدامها مع فعل(تبغين)تأكيد على نسبته لنورة الهطلاني،حيث تنحو التقاليد الشعرية بالاضطرار إليه على أن هناك مرادفاً له(تبين)، ولدواع وزنية استبدلته.أما معاني الكلمات،مير :أداة استثناء،مكوى:كياً،الورع:الطفل،المغاغي:صوت مغاغاة الطفل الرضيع.شاعرات-ردَّاس،المصدر السابق،ص:٧.كذلك فهرست الشعر النبطي،سعد الصويان،مطبعة مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية-٢٠٠١،ص:,٦٣١

٣٨-نذكر أن عَلْياء بنت عبد العزيز بن حُمَيَّان،أم عبيد وعبد الله العلي الرشيد،قالت شعراً في خلافهما مع صالح بن عيسى،شيخ ومحالف بعض قبائل حائل وابن عمهما،فأدى الخلاف معه إلى نفيهما:عبيد إلى البادية،وعبد الله إلى بغداد،فيما ذهبت الأم إلى (جُبَّة)من إقليم حائل بلد أهلها،وقالت شعراً كان ملهماً لابنها عبد الله الذي أسس إمارة آل رشيد-١٨٣٦.الأزهار النادية من أشعار البادية،محمد كمال،مكتبة المعارف-١٩٥٨،ص:١٨.تناول ذلك عدة باحثين دون ذكر اسمها.السياسة-الرشيد،المصدر السابق، ص:١٨٠.قبيلة شمر:متابعة وتحليل،هشَّال الخريصي،دار الساقي-١٩٩٨،ص:,٩٤

٣٩-توفرت سلاسل كتب مطبوعة تدوِّن سالفة وشعر نبطيين،وهو أدب المحكية النجدية،من أشهرها: الأزهار النادية من أشعار البادية(١٥ جزءاً)،لمحمد سعيد كمال(١٩٥٥-١٩٧٠)،ومن آدابنا الشعبية(تسعة أجزاء)،لمنديل الفهيد(١٩٧٨-٢٠٠٤)،وقدم برنامج"من البادية"في الثمانينات في الإذاعة السعودية،إلا أن استبقاء الحالة الشفوية،بدأ منذ الستينيات مع مطلق الذيابي الذي قدم أول برامج تعنى بهذا الأدب إلى محمد الشرهان الذي استأنف تقديمها مرئية في التلفزيون والفضائيات ما بعد الألفية،ومطبوعة في جزئين:سالفة وقصيدة(٢٠٠٤-٢٠٠٥)حتى جسدت بعض من قضاياه المسطحة:الفتن بسبب الماء والعار الأخلاقي في مسلسلات أنتج الكثير منها في الأردن برؤوس مالية من الخليج العربي.لم تكن إلا لتخفي قضايا أخرى أشد منها.

٤٠-السياسة-الرشيد،المصدر السابق،ص:,١٩٣

٤١-شرق الوادي:أسفار من أيام الانتظار،تركي الحمد،دار الساقي-٢٠٠٠،ص:,٦٦

٤٢-قبيلة شمر-الخريصي،المصدر السابق،ص:٨٧-,٩١

٤٣-خزانة التواريخ-البسام،المصدر السابق،ص:٥٧-,٦١

٤٤-سنة احتلال آل يحيى بمساندة آل رشيد عنيزة،ثم استرجاعها آل سليم بمساندة آل سعود.

٤٥-الخريزة:أحد أحياء عنيزة القديمة.

٤٦-الشاي.

٤٧-جاءك.

٤٨-يروى شفوياً،بأن الملك عبد العزيز ضحك وقال:"تستاهل بنت عبد الله"(أي:تستحق).

٤٩-يخبر المؤرخ البسام،بأنه بلغه أن الملك عبد العزيز يسميها:أم الأيتام والمساكين.

٥٠-من مغناة:"صدى التاريخ-١٩٨٦،للشاعر د.عبد الله العتيبي،و ألحان:غنام الديكان.

٥١–مقام عبد القادر و الشاذلي و مظاهر الأولياء،الأولياء و أوصافهم/ج:١،أحمد النقشبندي الخالدي، تحقيق:أديب نصر الدين،مؤسسة الانتشار العربي–١٩٩٧,

٥٢–نسبة إلى المتصوف أحمد الحسيني الرفاعي المتوفى ٥٧٨هجرية/١١٨٢م،انظر المصدر التالي.

٥٣–معجم الفلاسفة،إعداد:جورج طرابيشي،دار الطليعة–١٩٩٧,

٥٤–الموسيقى السورية عبر التاريخ،جبران أسعد،دار العلم–١٩٩٠,

٥٥–النص مأخوذ من،الإيقاعات الكويتية في الأغنية الشعبية/ج:٢،غنام الديكان،المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب–١٩٩٨,

٥٦–امرأة بلا سواحل،سعاد الصباح،دار سعاد الصباح–٢٠٠٢،ط:٣،ص:١٢٦,

٥٧–معجم التراث–جنيدل،المصدر السابق،ص:١٧٧–١٧٨,

٥٨–معجم التراث–جنيدل،المصدر السابق،ص:٢٢٨–٢٢٩

٥٩–معجم التراث–جنيدل،المصدر السابق،ص:٥٨–٦٠,

٦٠–هي مروية يتضح من سياقها أنها بذرت في كابوس تطور إلى تبقى منه بعد المنام إلى حكاية حملت بعض المبالغات والتهويل لتصبح خرافة.قفار،عبد الرحمن الفريح،سلسلة هذه بلادنا:٦١،الرئاسة العامة لرعاية الشباب–٢٠٠٠،ص:٢٢٥,

٦١–حديث الأحلام:رمزية الحلم،آنيا تيار،تر:أديب الخوري،دار الطليعة الجديدة–١٩٩٨،الحصاة أو الصخرة،ص:١٠٤,

٦٢–لنذكر عجز بيت أبي فراس الحَمْداني:"وفي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاء يُفْتَقَدُ البَدْرُ".

٦٣–حديث الأحلام–تيار،المصدر السابق،ص:١٩٥.

حيوات النساء في الريف اليمني وعملهنّ غير المنظور

تقديم: د. سكينة هاشم

مقدمة:

يعتبر عمل المرأة والرجل وإنتاجهما على حد سواء من آليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية. ولما كانت أعمال المرأة الريفية التي تقوم بها في المنزل أو في الحقل تواجه ندرة في الدراسة، حاولتُ من خلال هذا البحث إلقاء الضوء على حيوات النساء الريفيات في اليمن من خلال عملهّن غير المنظور. لأنه عمل غالباً ما يتم تجاهله، ولا تُحتسب خلاله بالتالي أدوار المرأة ضمن إنتاجية الرجل.

ولقد تمّ التركيز على تبيان القيمة الاقتصادية والاجتماعية لإنتاج المرأة وعملها غير المنظور، وكذلك على تحديد الدلالات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة لهذا العمل، عبر تبيان العلاقة بينه وبين العادات والتقاليد الاجتماعية السلبية السائدة، وما يتخلّل ذلك من مفاهيم اقتصادية خاطئة تؤثر سلباً على الواقع الحياتي للمرأة وعلى دورها ومكانتها في عملية التنمية في اليمن.

منهج الدراسة وأدواتها:

استند هذا البحث الميداني إلى المنهج الوصفي التحليلي. وجرى جمع المعلومات المتعلقة بالمرأة الريفية في اليمن وأدوارها الاقتصادية والاجتماعية في إطار مجتمعها وأسرتها خلال شهر تموز/ يوليو من عام ٢٠٠٥. كما استُخدمت تقنية المقابلة مع أربع نساء "من كبار السن"، وذلك بالتساوي بين محافظتين من محافظات الجمهورية اليمنية، وهما: محافظة "أبين" الواقعة في الجنوب الشرقي للعاصمة صنعاء، ومحافظة "مأرب" الواقعة في الجهة الشرقية من العاصمة اليمنية. واستُخدمت الاستمارة مع ١٠ نساء أميات من المحافظتين أيضاً، بمعدل خمس مستجوبات من كل محافظة. وتناولت أسئلة الاستمارة والمقابلة آراء المستجوبات أنفسهنّ ورأي مجتمعهنّ بعملهنّ.

أولاً: المرأة اليمنية الريفية ودورها الاقتصادي والاجتماعي:

تُعتبر المرأة الريفية أحد العناصر الفاعلة في التنمية الوطنية– القومية الشاملة. إذ تشكّل الأساس الذي يقوم عليه العمل الزراعي في الريف اليمني. بحيث يعتمد عمل المرأة هذا على الأعمال الزراعية الحقلية، من إعداد الأرض وتخصيبها وقلع الجذور والحصاد. وذلك جنباً إلى جنب مع الرجل في حال كان مقيماً مع أسرته في الريف، بالإضافة إلى قيامها بكامل الأعمال المنزلية، وبالاهتمام بتربية الأطفال وتربية الحيوانات.

غير أن النظرة إلى واقع المرأة الريفية لا تعكس بشكل فعلي القيمة الاقتصادية لعملها خارج المنزل أوخارج النشاط الزراعي عموماً. من ذلك مثلاً، عملها في مشروعات إنتاجية وحرفية صغيرة[1] كغزل الأوبار والأصواف ونسجها، وصناعة الأجبان ومشتقات الألبان وغيرها.

وفي حين أن الأسرة والبيئة المجتمعية التقليدية لا تزالان تعملان على استبعاد المرأة وتهميشها عبر إقصائها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً عن المجال العام، فإن بعض المتغيرات الاقتصادية المؤثرة سلباً على معيشة الأسرة الريفية قد تسهم مستقبلاً في تطوير القيم الاجتماعية والثقافية إزاء نشاط المرأة. بمعنى التعويل على قبول المجتمع التقليدي – مجتمع الرجال – بتعليم المرأة وعملها، لاسيما مع تزايد حجم الأسر الريفية الفقيرة. ولئن اعتبرت مشاركة المرأة اليمنية ضمن المتغيرات الاجتماعية التي ارتبطت بدولة الوحدة، فإن حجم مشاركتها لا يزال ضئيلاً ومحدوداً.

وفي الوقت الذي عبّرت فيه المرأة الريفية عن تطلّعها إلى تفعيل مشاركتها في المجال العام، اندرجت أنشطتها في اليمن–كما في معظم البلدان العربية– في مجالات الأعمال والأنشطة غير المأجورة وغير المحسوبة إحصائياً، لأن غالبية أعمال النساء في اليمن تقع في القطاعات غير الرسمية البعيدة عن الملاحظة المكتبية والإدارية، ولا ينفذ إليها التسجيل الرسمي. هذا بالإضافة إلى ما للعادات والتقاليد السائدة في المجتمع من تأثير في قوقعة المرأة وعزلها عن الحياة العامة. ولعلّ ندرة، لا بل انعدام الدراسات والبحوث المتخصصة في هذا المجال، أو عدم دقّة المعلومات الموثّقة، في حال وجدت، غالباً ما تجعل هذه المعلومات مبنيّة على افتراضات غير واقعية وغير شاملة لأدوار كلّ من المرأة والرجل.

ولقد أشار تقرير التنمية البشرية في اليمن لعام ١٩٩٨[2] إلى أن نسبة القوى العاملة من الجنسين في اليمن بلغت حوالي ٢٥،٤% من إجمالي السكان، بعد أن بلغت هذه النسبة عام١٩٩٤ نحو ٣٧% من مجموع السكان من سن١٥ سنة فأكثر. وتوزعت تلك النسبة بين ٢٩،٩% للرجال

[1] - الصلاحي، فؤاد، ملخص دراسة بعنوان: أوضاع المرأة الريفية وقضايا النوع الاجتماعي، دراسة ميدانية تحليليه، المؤتمر الوطني الثاني للمرأة "المرأة شريك أساسي في التنمية"، صنعاء، ٨-١٠ مارس ٢٠٠٣".

[2] - تقرير التنمية البشرية ، اليمن، وزارة التخطيط والتنمية ، ١٩٩٨، ص ٢٠.

وحوالي٦،٧%للنساء. مما يعني تدني نسبة عمل المرأة الريفية وإنتاجيتها الذي قد يكون عائداً إلى التركيب العمري الفتي للسكان وإلى ضآلة مشاركة الإناث في قوة العمل نتيجة لعدة أسباب منها،العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة وتدني مستوى المرأة اليمنية تعليمياً وثقافياً، الذي حال بدوره دون انخراط المرأة في الأعمال المنظورة.

نظرة حول مساهمة المرأة في الأعمال الزراعية:

من المعروف عن النظام الزراعي في اليمن أنه نظام مطريّ على الغالب (يعتمد على هطول الأمطار وتدفقها بالدرجة الأولى). إذ تقدّر نسبة الأرض المزروعة بالمحاصيل والتي تعتمد في ريها على الأمطار بنحو ٦٣% من مجموع مساحة الأرض المزروعة المقدرة بنحو ١،١ مليون هكتار، والموصوفة بأنها تقوم على الاعتماد المتبادل بين كلّ من الإنتاج النباتي والحيواني[٣]. مما قد يفسّر مساهمة المرأة الريفية في الإنتاج الزراعي جنباً إلى جنب مع الرجل، بسبب قسوة الحياة الطبيعة في الريف التي جعلت المرأة والرجل يقومان بأعمال مشتركة مضنية تزيد من حيث صعوبتها وقسوتها عن تلك الأعمال التي يقوم بها الرجال والنساء في الوسط الحضري. علماً بأن غالبية قرى الريف اليمني لا تزال بعيدة كل البعد عن نمط العيش في الحضر، ولا تزال الزراعة فيها تشكّل العمود الفقري للحياة في الريف.المرأة اليمنية لا تزال تشارك إذن، أباها وزوجها جنباً إلى جنب في الأعمال الزراعية[٤]. فهي "تلعب دوراً في إنتاج الغذاء الزراعي وهو ما يشكل العمود الفقري للأمن الغذائي[٥]"، وتنفق كذلك "حوالي"١٦ساعة" يومياً في الأعمال الزراعية والمنزلية"[٦].

وتشير بعض الدراسات إلى أن المرأة الريفية تقوم بالأعمال الحقلية أكثر من قيام الرجل بها. ويؤكد أحمد الصياد على أن " إسهام المرأة الريفية في موسم الحصاد قد تجاوز إسهام الرجل حيث لا تزال قرى الريف تشهد حتى اليوم الحصاد الجماعي الذي تشترك فيه معظم نساء القرية أو نساء العائلة، وهنَ يرددن الأهازيج والأغاني الشعبية بما يساعدهنّ على مواصلة الجهد بهمّة وعزيمة، وينسيهنّ المعاناة والأتعاب التي يحتمها عمل الأرض وحصادها"[٧]. ناهيك بأن نشاط المرأة الريفية يستغرق منها اليوم بكامله وجزءاً من الليل. في حين أن الأعمال المناطة بالرجل هي أعمال موسمية مثل موسم الحرث والدرس.

---

[٣] - هزاع مقبل، عبد الولي ، بحوث اقتصادية عربية، واقع المرأة الريفية ودورها الاقتصادي في الزراعة، مجلة عربية تصدرها اللجنة العربية للبحوث الاقتصادية، السنة الثامنة، العدد السابع عشر، ص ٨٥.

[٤]الصياد، أحمد: المرأة اليمنية وتحديات العصر، ط١، بيروت، دار المدى ، ١٩٩٥، ص ٤٣.

[٥] الباز، شهيدة: سياسة إستراتيجية النوع في مجال الزراعة والأمن الغذائي، يوليو ١٩٩٨، ص ٩٥.

[٦] - المرجع السابق نفسه، ص ٩٥.

[٧] - الصياد، أحمد: م س، ص ٤١.

الأعمال الحقلية التي تقوم بها المرأة:

يتمثّل العمل في الأرض في "اقتلاع الأعشاب الضارة بالبذور، وبناء الأحواض الرملية، واستخدام الأسمدة ومواد الوقاية، وتجهيز المصاطب، وتقليم الأغصان الخميلة، واقتلاع الأعشاب، والحصاد والدرس، وتخزين المنتجات، وإدارة مخازن العائلة، واختيار البذور، ونقل المحاصيل، وإبعاد الطيور عن المحاصيل وثمرة المحصول، كما يساعدنَ في إعداد الأرض والتخطيط"[٨].

وفي بعض المناطق الريفية تقوم النساء بأعمال الحراثة والدرس والتسويق بينما تقتصر هذه الأعمال في مناطق أخرى على الرجال. يؤكد ذلك غانم في دراسته عن دور المرأة في التنمية، والتي ذكر فيها "أن المرأة الريفية تقوم بحرث الأرض وإعدادها وتسويتها، والبذر والري، والتسميد، وغيرها من الأعمال.[٩]

ولاشك أن هذه الأدوار للمرأة الريفية تختلف نسبياً من منطقة إلى أخرى في الجمهورية اليمنية، ومن محافظة لأخرى لكنها تحتسب على أنها ذات مردود مادي، لكن من دون أن تكون عملياً محسوبة الكلفة.

العمل في تربية الحيوانات:

تساهم المرأة الريفية اليمنية بشكل كبير وأساسي في كل جزئيات تربية أنواع الثروة الحيوانية التي تمتلكها وأسرتها. وأبرز الأعمال التي تقوم بها في هذا المجال هي إنتاج الأعلاف وتجميعها، وذلك بغرض إطعامها للحيوانات، مما يتطلب من المرأة وقتاً وجهداً لتجميع المواد الغذائية ومن ثم لتنقيتها من الحشائش الضارة بالحيوانات التي تعنى بتغذيتها في المنزل، أو قيامها بتحزيمها وربطها ونقلها إلى الأماكن المخصصة للتخزين، واضطّرارها للعمل في حقول الغير مقابل حصولها على علف لحيواناتها وأسرتها.

بالإضافة إلى ذلك تقوم المرأة الريفية بإحضار الحيوانات إلى المراعي وحمايتها من الحيوانات المفترسة؛ كما تقوم بتوليدها ورعاية صغارها. وتطعم المرأة الريفية أيضاً الأبقار يومياً باليد، وتنظّف الحظائر وتخرج الروث(المخلفات الصلبة) وتنقلها إلى المخازن للاحتفاظ بها كسماد. ومن ثمة تقوم بتدوير جزء من تلك المخلفات وتكويره ليصبح صالحاً للوقود المنزلي.

ويقدر الباحثون الوقت الذي تنفقه المرأة الريفية في إطعام الأبقار يدوياً بثلاث ساعات يومياً، ولا يقلّ ما تنفقه من الوقت في توفير العلف للحيوانات عن أربع ساعات يومياً، هذا بالإضافة إلى مسؤولياتها الخاصة في تسمين الأغنام وحلبها والخروج بها إلى الحقول[١٠].

[٨] - مقبل، عبد الولي هزاع: م سا ص ص ١٠٠-١٠٢.
[٩] - غانم أحمد، عبد الرحمن: دور المرأة اليمنية في التنمية الريفية، الدراسات الاجتماعية، العدد الثامن١٩٩٩، جامعة العلوم والتكنولوجيا، ص ٢٧.
[١٠] - المحفدي، أفراح: ، "المرأة ودورها في حماية البيئة وتحسينها"، ورقة عمل قدمت إلى ورشة العمل التدريبية ،وزارة الزراعة- الإدارة العامة لتنمية المرأة الريفية، صنعاء ، مايو ٢٠٠٠، ص ٣٤.

ومن أهم الحيوانات التي تقوم المرأة الريفية بتربيتها على سبيل المثال الأغنام والماعز والأبقار والحمير...إلخ، كما تقوم بتربية الطيور الداجنة، مثل الحمام، والدجاج والأرانب[١١].

وبما أن نمط الإنتاج الزراعي السائد الذي يعتمد على زراعة المحاصيل وتربية المواشي لا يزال واسع الانتشار في اليمن، وعلى الرغم من كونه يمرّ بمرحلة انتقالية نحو التحديث، فإن استخدام المواشي للعمل في الحقول وجمع مخلفاتها لاستعماله في التسميد والطاقة المنزلية، كذلك منتجات اللحوم والألبان لا زالت تشكّل جزءاً هاماً من الاقتصاد المنزلي.

وبناءً عليه يتعلق وجود المواشي والمتاجرة بها بمعيشة الأسرة الريفية. لأنها تشكّل استثماراً مهماً ووسيلة نقل وقوة رئيسية في العمل في آن معاً. كما تعتبر الأغنام والأبقار أحد مصادر دخل المواطن في الريف وخصوصاً في حالات ارتفاع أسعارها في الأسواق الأسبوعية[١٢].

أما تربية الحمير فلها أهميتها الخاصة لأنها الوسيلة الأولى والمناسبة لنقل المحاصيل والمياه، ولأن تربيتها لا تحتاج إلى عناء كبير مقارنة بالأعمال المضنية الناتجة عن تربية الأبقار. فيما تؤمن تربية الدواجن حاجة المنزل للبيض واللّحوم ، وتشكّل أحد مصادر الدخل الثابت بالنسبة للنساء الريفيات اللّواتي يقمنَ ببيع منتجاتهنّ بانتظام.

هذا ويُستفاد من تربية الأغنام والماعز في إنتاج الحليب واللحوم. وتسهم العناية الكبيرة بها في تنويع دخل الأسرة الريفية وزيادته. وتقوم المرأة بإضافة حليب الأغنام والماعز إلى حليب البقر بغرض إنتاج اللّبن والسمن. مما يدفع بالأسرة إلى عدم شراء هذه المنتجات وإدخار بعض الأموال.

ولئن كانت الأسرة الريفية اليمنية تعتمد على تربية الحيوانات اعتمادا أساسياً في العمل الزراعي، فإن كلّ تلك المسؤوليات والمهام تقع على عاتق المرأة؛ الأمر الذي يفيد بالقول إن المرأة اليمنية الريفية لم تكن في يوم من الأيام بمعزل عن المشاركة في اقتصاد الأسرة، خصوصاً في ميادين العمل الزراعي. وأن هذا الجهد يشير إلى إسهاماتها منذ زمن بعيد في الحياة الاقتصادية، حتى قبل احتساب مشاركة المرأة الحضرية في التنمية. حتى ان بعض التقديرات تشير إلى أن عمل المرأة الريفية اليمنية في المجال الزراعي يفوق أحياناً، بمختلف مراحله عمل الرجل الريفي.

مساهمة المرأة الريفية في الأعمال المنزلية:

بالإضافة إلى كل الأعمال التي تقوم بها المرأة الريفية في الحقل أو في تربية الحيوانات، فإنها تعتبر عملياً المسؤولة الرئيسية عن أعمال المنزل وعن إعداد المستلزمات المنزلية للأسرة.

١١ - أحمد غانم، عبد الرحمن: م س، ص ٣٠.

١٢ - اكربون، آن ماري و بيجفيلد، كاترين: دور المرأة في الثروة الزراعية والحيوانية في ج.ي.، منظمة أوكسفام، كانون الأول، ديسمبر، ١٩٩٥.

فتطبخ وتغسل الملابس وتجلب الماء بمختلف الوسائل من مناهل قريبة أو بعيدة. كما تقوم بجمع الحطب ونقله حملاً على رأسها أو على ظهرها. وهي تعنى أيضاً بنظافة المنزل، إلى جانب مسؤولياتها في تربية أطفالها والاهتمام بهم وتلبية جميع متطلباتهم ورعايتهم تعليمياً، إن كانت قد أخذت قسطها من التعلم .

وتجدر الإشارة إلى أن المرأة الريفية اليمنية تقوم أيضاً –بحسب ميولها وقدراتها الفنية والمهنية– بعدّة أنشطة منزلية أخرى مثل، بعض الصناعات المنزلية البسيطة المرتبطة بالمحصول الزراعي وغيرها من الصناعات التقليدية اليدوية، وأعمال الدباغة والغزل والحياكة والتطريز. وهي تقوم بهذه الأعمال من أجل بيع السلع أو مبادلتها تلبيةً لاحتياجات الأسرة.

ثانياً: خصوصية التقسيم الاجتماعي للعمل بين النساء والرجال

يقوم تقسيم العمل الاجتماعي في الريف اليمني على النوع الاجتماعي، والعمر، ونوع المحصول، والعمل الموسمي وأدوات العمل.

فعلى صعيد النوع الاجتماعي هناك تقسيم اجتماعي للعمل بين النساء والرجال في الأعمال الزراعية، بحيث تنحصر مهمة الرجل التقليدية في الحرث والتسويق بالإضافة إلى بذر الأرض وحصادها ومعالجة المحاصيل، لاسيما "الأعمال الموسمية". بينما تتحمل المرأة مسؤولية التخزين وتزداد الأعباء المنوطة بها في حال هجرة الرجل وخاصة في المناطق التي تعتمد على الأمطار في الري فتصبح مسؤولية المرأة القيام بجميع المهام الزراعية التي كان يتحملها زوجها والتي تلخصها سنتيامنتي[١٣] في الجدول الآتي:–

جدول تقسيم الأعمال بين النساء والرجال في الريف اليمني

عمليات الحرث	يقوم بها الرجال وأحياناً النساء
عمليات البذر	تقوم بها النساء وأحياناً الرجال.
عمليات التجفيف	تقوم بها النساء وأحياناً الرجال.
عملية الحصاد	تقوم بها النساء وأحياناً الرجال.
عملية الدرس	يقوم بها الرجال وأحياناً النساء
عملية الغربلة	تقوم بها النساء وأحياناً الرجال.
عملية التسميد	تقوم بها النساء وأحياناً الرجال.
عملية جمع الجذور	تقوم بها النساء وأحياناً الرجال.

[١٣] - سنتيامنتي: النساء والتنمية بالجمهورية العربية اليمنية،صنعاء، المجموعة الاستشارية للجهاز المركزي للتخطيط، ابريل١٩٨٣، ص ٦٠.

عملية تنقية الأعشاب الضارة	تقوم بها النساء.
عملية رش المبيدات الكيماوية والسماد الكيماوي	يقوم بها الرجال.

هذا فيما يتعلق بالعمل الزراعي، أما بالنسبة لتربية الحيوانات فانها تقع بأكملها على عاتق المرأة، إضافة إلى الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال وجلب المياه ومواد الوقود كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

أما تقسيم العمل على أساس العمر فعائد إلى العادات العائلية السائدة في المجتمع اليمني والتي تحتّم توزيع أعمال الأسرة الواحدة بين النساء حسب السن، وحسب الاحتياجات. إذ بالإمكان أن تتولى امرأتان شؤون البيت ورعاية الماشية، بينما تعمل الأخرى في الحقل فيما تقوم المرأة الكبيرة برعاية الماشية أو ببعض الصناعات الخزفية. أما المرأة الولود فيوكل إليها أمر الاهتمام بالأطفال وإعداد الطعام وتنظيف الملابس والمنزل. وتتحمل الفتاة الشابة الأعمال الشاقة التي تتطلب جهداً كبيراً، مثل جمع الحطب، العمل في الحقل، نقل الماء من مسافات بعيدة، وتتولى الفتاة الصغيرة مهمة مساعدة كلّ النساء لجهة تقريب مستلزمات أعمالهنّ[١٤]. فتقوم الفتيات حسب دراسة لهزاع بإحضار الماء والوقود ورعي الماشية وإرواء الحيوانات وصنع السماد من الروث" (مخلفات الحيوانات)، ونقل المحاصيل، بينما تقوم النساء الأكبر سناً بتحضير الطعام وببعض المهام الحقلية حسب مواعيدها، إلى جانب إطعام الأبقار وحلبها واستخراج مشتقات الألبان، كالزبد والسمن وصناعة الأجبان وإدارة مستودعات الحبوب. أما النساء المسنّات فتارة يقمن بمطاردة الطيور عن المحاصيل واختيار البذور والعناية بالأطفال، وتارة يؤدين بعض الأعمال الخفيفة كبذر البذور، وتنقية الأعشاب الضارة، وأعمال التجفيف بمساعدة الأطفال[١٥].

وفي ما يخصّ تقسيم العمل حسب نوع المحصول، فإن المرأة في الغالب لا تقوم بجني المحاصيل النقدية وزراعتها (القات، البن، العنب وغيرها من الفواكه)، ويستثنى من ذلك محصول القطن في تهامة لأنه يحتاج إلى يد عاملة كثيرة عدا عن زراعة القات في جبل صبر بالقرب من مدينة تعز. أما نساء منطقة عمران فإنهن يشاركن لكن ليس منذ زمن بعيد في زراعة الخضروات. وربما كان ذلك عائداً إلى ازدياد معدل هجرة الرجال.

وفي منطقتي يريم ورداع وما جاورهما فإن النساء يساعدنَ في جمع الأعشاب الضارة من حقول القات. والملاحظ أن تقسيم العمل يحول دون مشاركة المرأة عموماً في الإنتاج السلعي، لأن الرجل

---

[١٤] - سيجر إليزابيث، كيرين: المرأة والتغير في الجمهورية اليمنية، مرجع سابق، ص ١٦٤.
[١٥] - عبد الولي هزاع: م س، ص ١٠٠.

هو المسؤول عن إنتاج المحاصيل النقدية، فيما تقع على عاتق المرأة الريفية مهمة إنتاج المحاصيل المعيشية.

هذا وتختلف أعمال النساء الريفيات حسب الموسم كما أشارت إلى ذلك سنتيامينتي. ففي فصل الشتاء يقمنَ بإعداد التربة للزراعة، عن طريق تسميدها وإزالة الأعشاب الضارة والجذور، ومن ثم يقمن بعملية البذر والتشتيل والتعشيب خلال فصل الصيف، ومن ثم جمع المحصول وحمله وتخزينه[١٦].

أما عن أدوات العمل التي تستخدمها المرأة الريفية في الحقول فتقتصر على الأدوات الزراعية التقليدية (المنجل، الفأس، اليد)[١٧]، إلى جانب استعمالها بعض الآلات التي تحملها البهائم والأبقار أو الجمال (كالمشبر والمحراث وغيرها).
وقد بيّنت الدراسة الميدانية أن هناك أعمالاً لا تمارسها النساء عموماً. إذ أشارت تسع نساء من بين النساء العشر اللّواتي جرى استجوابهنّ إلى أن البناء ونعل مواده هما من الأعمال التي لا تمارسها المرأة في العادة في أكثر من محلة وقرية، باستثناء بعض النساء اللّواتي تعودن القيام بهذه الأعمال. وينطبق الشيء نفسه على ذبح الأغنام والأبقار الذي يُعتبر كذلك من الأعمال المخصّصة للرجال، فتُعفى منها المرأة. هذا بالإضافة إلى بعض الأعمال التي تتطلّب مجهوداً كبيراً، والتي تغدو غير مقبولة ولا يستساغ للمرأة القيام بها، من ذلك مثلاً، حرث الأرض بواسطة الثور.

ثالثاً: في علاقة عمل المرأة بمكانتها الاجتماعية:
لئن بيّن كل ما تقدّم إسهامات المرأة الريفية في الميادين الاقتصادية، لاسيما الأعمال الكثيرة التي تقوم بها والتي تؤثر كثيراً في الاقتصاد المنزلي من غير أن تكون مدفوعة الأجر، فإن الأعمال غير المنظورة هذه لم تؤثر في تحسين النظرة إلى مكانتها الاجتماعية. لأن عمل المرأة الريفية لا يزال يعتبر من الواجبات المتعارف عليها. لذا لم يعطَ هذا العمل حقه في الحسابات القومية والناتج المحلي. بل يقتصر الأمر على ذكر عمل المرأة المدفوع، المسجل في القطاع الرسمي. وعلى الرغم من أن وثائق المؤتمر الوطني للسياسات السكانية تؤكد أهمية دور المرأة الريفية في مجال العمل الزراعي إلا أن هناك تناقضاً في فهم هذا الدور في المجتمع اليمني. إذ ثمة إجماع على دور المرأة في النشاط الزراعي وتعدد مهامها فيه، لكن في ظلّ تعارض هذا الفهم مع الاتجاهات الاجتماعية السائدة للأدوار التي تؤديها المرأة الريفية. فالرجل هو صاحب الدور

---

[١٦] - سنتيامينتي: المرأة والعمل والسكان والتنمية في الجمهورية اليمنية، صورة المرأة اليمنية في الدراسات الغربية، المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، سلسلة دراسات، ترجمة أحمد جرادات، ص١٤٩.
[١٧] - آن ماري كاترين: دور المرأة في الثروة الزراعية والحيوانية في الجمهورية اليمنية، ص ٢٤.

الاقتصادي وهو المعيل لأفراد الأسرة، مما لا يتفق مع واقع المرأة بصورة عامة. وعندما يسأل الفرد عن عمل المرأة الريفية وأهميته تكون الإجابة المباشرة عمل البيت ورعاية النشء والتحطيب وجلب الماء والتعشيب، بينما لا يلقى الضوء على الدور الحقيقي والمتعدد للمرأة ودورها في الزراعة[١٨]. فيما يحتكر الرجل تسويق المنتجات، حتى إذا كان المنتج المباع قد أنتجته المرأة نفسها. ولا يقتصر الأمر على عدم احتساب دورها وجهدها في التنمية بل يتم تجاوز ذلك إلى حرمانها من حق التصرف في إنتاجها ومن المشاركة في العائد وممارسة الدور الاجتماعي الذي يتناسب مع دورها الكبير في العملية الإنتاجية.
وبذلك لم تؤثر المشاركة الفعّالة للمرأة في الأعمال الزراعية المختلفة في تحسين مكانتها في الأسرة والمجتمع، لاسيما وأنها لا تزال محرومة من الملكية ومن حقّها الكامل في التصرف بتلك الملكية.

رابعاً: أوقات النساء من خلال عملهنّ المنزلي:

بيّنت الدراسة الميدانية اتّخاذ عمل النساء في الريف اليمني مسارين: مسار الأعمال المنزلية الاعتيادية ومسار الأعمال المنزلية الموسمية واليومية. إذ أشارت ٨ مستجوبات من مجموع المستجوبات العشر إلى أن الطبخ وإعداد الطعام يومياً للوجبات الثلاث لكل أفراد الأسرة، مهما كبر حجمها أو صغر، يعتبر من مسؤولية المرأة. فالطبخ هو من أهم الأعمال المنزلية اليومية، وقد يستغرق من النساء ما يقارب الثلاث ساعات إلى أربع ساعات يومياً، وخصوصاً إذا ما انفردت الواحدة منهنّ بخبز العيش(أي الخبز). يلي ذلك قيامهنّ بتنظيف الأواني الذي قد يستغرق منهنّ بين أربعين إلى ستين دقيقة، أي بمعدل ساعة بعد كل وجبة. يلي ذلك تنظيف المنزل مرة واحدة في اليوم. فيما يستغرق جلب الحطب بين ثلاث ساعات وأربع ساعات. أما مسؤولية العناية بالأطفال فتستغرق ساعة واحدة فقط.

ويُعتبر غسل الملابس من الأعمال المهمّة التي تقوم بها النساء أيضاً، وعادة ما يستغرق ساعتين إلى ثلاث ساعات من زمن النساء العشر اللّواتي تمّ استجوابهنّ.

أما بالنسبة للأعمال المنزلية الموسمية واليومية، فأشارت ٦ مستجوبات من مجموع المستجوبات العشر إلى أنهن يجلبن الماء من أماكن بعيدة إلى المنازل عدّة مرات في اليوم الواحد، وأن جلب المياه يستغرق منهنّ مابين ساعة إلى ساعة ونصف الساعة ذهاباً وإياباً. وغالباً ما يقمن بهذا

[١٨] - المؤتمر الوطني الأول للسياسات السكانية في الجمهورية اليمنية، ص ١٩٩٨.

العمل في موسم الشتاء بالذات أو في مواسم الجفاف حين تتوقف الأمطار وتجف الينابيع القريبة ويُستنفَذ المخزون المنزلي.
هذا وأشارت نساء ثمانٍ من بين النساء العشر إلى أن تحضير السمن يعتبر من أعمالهنّ الموسمية التي يقمنَ بها في المنزل بعد حلب الأبقار. بحيث يجري تحضير اللبن لكي يُستخرج منه السمن وبيعه لسدّ حاجة الأسرة. وهي عملية إنتاجية تتطلّب وقتاً يقدر بساعة أو ساعتين وأكثر أحياناً إذا كانت كمية السمن المستخرج كبيرة.

أوقات النساء من خلال عملهنّ في الحقل:

أشارت ٧ نساء إلى أن حصاد المزروعات وجني المحصول من الثمار هما من الأعمال التي يقمن بها في الحقل والتي يستغرق منهنّ العمل فيهما وقتاً طويلاً جداً قد يمتد إلى منتصف النهار، وذلك بحسب حجم الأرض وعدد المغروس. ثلاث نساء فقط أشرنَ إلى أن هذا العمل قد يستغرق منهنّ أحيانا وقتاً أطول قد يمتدّ "من الصباح إلى المساء".
هذا ويستغرق سقي المزروعات وقتا أطول وجهدا أكبر (بين ٤–٥ ساعات يومياً)، لاسيما إذا كانت الحقول والمزارع تُروى من مياه الينابيع والجداول الصغيرة. وأكدت النساء أن هذا العمل هو من أهم الأعمال الزراعية للمرأة في الحقل إلى جانب غرس الأشجار الذي يستغرق العمل فيه من ٥ إلى ٦ ساعات. في حين يُعتبر حرث الأرض من الأعمال الأقل أهمية وإن كان يستغرق منهنّ أحياناً بين ٣ إلى٤ ساعات لكن في أوقات معيّنة وليس بشكل دائم.
أما قطع الأعلاف للحيوانات فهو من الأعمال شبه اليومية التي تقوم بها النساء، والذي يستغرق منهنّ وقتاً طويلاً يمتد إلى ٨ ساعات يومياً.

وهناك أعمال موسمية ويومية مختلفة للمرأة خارج المنزل أشارت إليها النساء أيضاً. فأجمعت غالبيتهنّ على اختلاف طبيعة أعمالهنّ خارج المنزل، أي في المزارع، وعلى اختلاف طبيعة هذا العمل بحسب المواسم من جهة أخرى. فيكون موسم جمع المحصول مثلاً، من أكثر المواسم إرهاقاً، وقد يمتد هذا العمل إلى فترة أسبوع أو أسبوعين، بمعدل ٧ إلى٨ ساعات بما فيها إعداد الطعام للعمالة المساعدة من الرجال والنساء.
وأضافت ثلاث مستجوبات إن بيع المواشي عند الحاجة في السوق الأسبوعي يعتبر من الأعمال الموسمية التي نادراً ما توكل إليهنّ. لكن عملية البيع والتسوق إن تمت تستغرق نهاراً كاملاً. هذا بالإضافة إلى وجود أعمال موسمية أخرى تقوم بها النساء خارج المنزل مثل قطف الثمار وحصد المنتجات الزراعية الموسمية، وترتيب الأشجار، وغرس البذور في الوقت المخصص لغرسها.

في الوقت المخصَّص يوميّاً لتربية الحيوانات:

أشارت غالبية المستجوبات إلى أن الحيوانات التي يقمن بتربيتها هي الأغنام، الماعز، الأبقار، والدواجن. وتتركّز هذه الرعاية في إطعام هذه الحيوانات وإشرابها، وإحضار الأعلاف لها من المزارع والمراعي، وإزالة المخلفات من أماكن إقامتها، وكذلك حلب الأبقار وإناث الخرفان والماعزوتجميع محاصيل البيض..

وأضفن إن المدّة الزمنية التي تستغقرها منهنّ مسؤوليتهنّ عن الحيوانات ورعايتها هي كالآتي:

- بين ٣ إلى ٤ ساعات يومياً للعناية بالأبقار
- بين ٥ إلى ٦ ساعات لرعاية الأغنام في المراعي والتلال وحواري القرى، وكذلك لرعاية الماعز والاهتمام به.
- بين ١ إلى ٢ (ساعة) لرعاية الدواجن، بما في ذلك تجميع محصول البيض ورعاية الكتاكيت(صغار الدواجن).

خامساً: المرأة الريفية من منظور الذات والمجتمع:

نساء العيّنة نظرنَ إلى عملهنّ على أنه ذات أهمية وقيمة كبيرتين جداً. فالمرأة برأيهنّ تعمل أكثر من الرجل، لأنها تتولّى مهاماً متعدّدة، سواء اقتصرت هذه المهام على المنزل أو امتدّت لتشمل الحقل والتسوّق الأسبوعي. فهذه الأعمال التي يُضاف إليها الاهتمام بالأطفال ورعايتهم تستغرق منهنّ بين ٨ و١٥ ساعة يومياً. ومن أقوال إحدى النساء في إطار وصفها نشاطها اليومي[١٩] : ""**أستيقظ عند الساعة الرابعة والنصف صباحاً لأصلي صلاة الفجر، ومن ثم أقوم بإعداد الفطور للأسرة حتى الساعة السادسة والنصف، وبعدها أتوجه إلى حظيرة الحيوانات وأقوم بإطعامها وإحضار العلف لها وسقيها وتنظيف مكانها، وبعد ذلك أتوجه إلى المزرعة(الحقل) وأقوم بحصاد بعض المزروعات وسقيها إلى حدود الساعة الحادية عشرة والنصف ظهراً، ومن ثم أعود إلى المنزل حيث أصلي الظهر، ثم أقوم بإعداد طعام الغداء عند الساعة الواحدة بعد الظهر، ثم أبدأ بتنظيف الأواني إلى حدود الساعة الثانية أو الثالثة عصراً، وهو وقت العودة إلى الحقل، لإتمام العمل الذي بدأته في الصباح، ومن ثم أعود إلى المنزل قبيل صلاة المغرب لأصلي وأعدّ طعام العشاء؛ يلي ذلك**

[١٩] - كلام لإحدى المستجوبات من محافظة أبين خلال إجراء المقابلة.

قيامي بتنظيف المنزل والمطبخ والاهتمام بالأطفال وغسل الملابس، ومساعدة بقية أفراد الأسرة في أي أعمال أخرى. ولا أخلد إلى النوم حتى الساعة العاشرة والنصف مساءً[٢٠]".

أما عن القيمة الاجتماعية لعمل المرأة الريفية في الحقل من وجهة نظر الأسرة والمجتمع، فقد أجمعت ست نساء على أن الأسرة والمجتمع ينظران إلى عمل المرأة عموماً بتقدير واهتمام. لكن دون أن يعني ذلك أن عملها محسوب اقتصادياً. وذلك مقابل ٤ نساء اعتبرن أن الأسرة والمجتمع ينظران إلى عمل المرأة على أنه خالٍ من أيّ قيمة. إذ يُنظر إلى عملها على أنه عمل ناقص، لا تستمر فيه المرأة طوال الوقت. فضلاً عن اعتبار عملها في المنزل والحقل مقارنة بعمل الرجل وكأنه عمل بسيط لا قيمة مادية له.

وعن علاقة العمل المنزلي للمرأة بمكانتها الاجتماعية من وجهة نظر الأسرة والمجتمع،أكدت النساء أن هذه العلاقة وشيجة وكبيرة وأنها كذلك علاقة محسوبة اجتماعيا لصالح المرأة. إذ إنها تحظى بالتقدير والتشجيع والاحترام،سواء في إطار الأسرة أو في أطار المجتمع الكبير. وهذا على الرغم من أن الأعمال المنزلية التي تقوم بها المرأة غير محسوبة مادياً. في حين أن المرأة التي تعمل خارج نطاق المنزل يُنظر إليها باحترام وتقدير على الرغم أيضاً من اعتبار عملها خارج المنزل عملاً غير مكتمل ولا يساوي بالتالي العمل الذي يقوم به الرجل خارج المنزل.

في عائدات المرأة الريفية من العمل ودورها في اتخاذ القرار:

أشارت سبع مستجوبات إلى أن العائد الذي يحصلن عليه عموماً مقابل عملهنّ في المنزل والحقل عبارة عن حصة من إنتاج المحصول، في حال عملن خارج نطاق أسرهنّ. هذا بالإضافة إلى الغذاء والكساء وإلى بعض الهدايا غير المجزية أحياناً. ، فيما أشارت المستجوبات الثلاث المتبقيات إلى أن العائد الذي يحصلن عليه يتمثّل في الغذاء والكساء والهدايا التي يتلقّينها في المناسبات الدينية ومناسبات أخرى كالأعراس.

أما عن قدرتهنّ على التصرف بممتلكات الأسرة الزراعية والحيوانية دون استشارة الزوج أو الأسرة، فقد أكدت أغلبية المستجوبات على أن ذلك في مقدورهنّ وأن لهنّ حق التصرّف ببعض

---

[٢٠] لمزيد من التعريف بدور المرأة الريفية راجع في ملحق البحث الجدول الذي توضح فيه إحدى المستجوبات من محافظة ذمار الأعمال اليومية التي تقوم بها.

الحيوانات وبيعها عند الحاجة، هذا بالإضافة إلى إمكانيتهنّ المتاحة لجهة بيع بعض المنتجات الزراعية التي يحصلنَ عليها من الحقول"بعد عملية الحصاد". لكن هذه المسألة مشروطة بغياب ربّ الأسرة. بمعنى أنهنّ غير مضطّرات إلى استئذان الرجل/ربّ الأسرة إلا عند غيابه فقط، علماً بأنهنّ يصبحن مضطّرات في هذه الحالة لاستشارة أسرة الزوج قبل القيام بأي شيء.

على صعيد آخر أجمعت سبع نساء على أنهنّ يُستشرن عند توزيع مهام العمل في الحقل وكذلك عند بيع الحيوانات أو المحاصيل الزراعية. وقد حدّدت ست نساء منهنّ بعض المجالات الأخرى التي تجري استشارتهنّ بصددها، ومنها مثلاً الأمور الخاصة بتزويج أولادهنّ، ذكوراً كانوا أم إناثاً.

أما النساء الثلاث المتبقيات فلا تجري استشارتهن في مختلف المسائل التي تخصّ شؤون الأسرة بل ببعضها، كما لا تجري استشارتهنّ عند التصرّف بممتلكات الأسرة، من منزلية أو غيرها.

وعند سؤال النساء عن نتائج عدم مشاركة المرأة أو الزوجة في العمل الزراعي لسبب من الأسباب، أجابت خمس نساء بأن عدم مشاركة المرأة يحرم الأسرة من أهم مصدر من مصادر دخلها. هذا بالإضافة إلى اختلال الاستقرار النفسي والاجتماعي للرجل. وأشارت خمس نساء إلى أن عدم مشاركة المرأة في العمل الزراعي يؤدي إلى هدر المال والوقت. لأن العمل في مجال الزراعة من دون مساندة المرأة سوف يستغرق وقتاً أكبر، وسوف يضطّر ربّ الأسرة لدفع مبالغ نقدية أو محصول عيني لعمّال مساعدين.

خلاصة:

لقد بيّنا من خلال هذا البحث حجم الوقت الذي يستغرقه يستغرقها عمل المرأة الريفية في المنزل وفي الحقل من دون أن يجري احتساب هذا العمل ضمن النتاج القومي، أو حتى من دون أن يجري تقديره اجتماعياً. إذ يُحتسب عمل المرأة لصالح الرجل. وتلعب العادات والتقاليد السائدة دوراً رئيسياً ومباشراً في تغييب عمل المرأة وإنتاجها انطلاقاً من المفهوم المغلوط لتقسيم العمل الاجتماعي والذي يبنى على المبدأ البيولوجي(ذكور وإناث)، وليس على مبدأ احتساب حقيقة هذا. بحيث يخصّ هذا التقسيم النساء بالأعمال غير المنظورة مثل، الاهتمام بالأطفال، الأعمال المنزلية، بعض الأعمال الحقلية؛ ويخص الرجال بالأعمال ذات العائد المادي.

هذا ويعتبر عمل المرأة غير المنظور وإنتاجها سبباً أساسياً من أسباب تدني دورها ومكانتها الاجتماعية، بالإضافة إلى اشتراط تصرفها في ممتلكات الأسرة بغياب الرجل، لكن مع ضرورة استشارة أسرة الزوج أو المسؤول الأول في الأسرة. وكذلك حريتها المقيّدة في اتّخاذ القرار حيال أي شأن من شؤون الأسرة، لأن هذا الحق يقتصر على الرجل، أو على من ينوب عنه في غيابه. ولا تجري استشارتها إلا في بعض الأمور الأسرية مثل زواج الأولاد أو شراء بعض الممتلكات،أو بيع وشراء الحيوانات، وأنواع البذور...لكن هذه الاستشارات تكون بمثابة إعطاء العلم فقط لا غير. لأنه لا يحقّ لها المعارضة أو الرفض، والتأثير بالتالي على القرار الأساسي لربّ الأسرة .

تحملنا هذه المؤشرات جميعها إلى الواقع الحياتي للمرأة الريفية بما هو واقع شديد القسوة، لاسيما مع طغيان بعض العادات والتقاليد المعيقة لدورها. فحياتها كما تبدّت لنا خالية من أوقات الراحة أو الفراغ. مما يحول بالتالي دون اكتسابها ثقافة جديدة أو خبرات حديثة قد تنقلها لها وسائل الاتصال الجماهيرية كالتلفزيون، والإذاعات وغيرها من والوسائل الإعلاميّة.

ملحق

جدول بأعمال إحدى المستجوبات

الساعة	نوع العمل
٥ صباحاً	الاستيقاظ للصلاة
٥,١٥صباحاً	حلب البقرة أو الغنم
٦ صباحاً	إعداد الفطور
٨صباحاً	تنظيف المنزل والاعتناء بالأطفال ثم إعداد نفسها لعملها في الحقل.
١٠صباحاً	إطعام الحيوانات وجلب المياه من الآبار البعيدة.
١٢ ظهراً	تحضير طعام الغداء لكلّ أفراد الأسرة.
الواحدة والنصف ظهراً	تناول طعام الغداء، أو حمله إلى الرجل في الحقل في حال عدم حضوره إلى المنزل لتناوله.
الثالثة عصراً	مساعدة الرجل أثناء العمل في الحقل وجلب المياه وغسل الملابس.
الخامسة عصراً	إطعام الحيوانات، والبحث عن حطب.
السادسة مساءً	إعداد وجبة العشاء، ومتابعة الأولاد في المنزل.
الثامنة مساءً	تقديم العشاء لجميع أفراد الأسرة.
التاسعة مساءً	غسل أواني المطبخ، وتنظيفها.
التاسعة والنصف مساءً	تنويم الأطفال.
العاشرة مساءً	الخلود للنوم بعد عمل يوم شاق ومرهق.

المراجع

١ – مقبل هزاع،عبد الولي" واقع المرأة الريفية ودورها الاقتصادي في الزراعة"، بحوث اقتصادية عربية، مجلة عربية تصدرها اللجنة العربية للبحوث الاقتصادية، السنة الثامنة، العدد السابع عشر.

٢- غانم أحمد، عبد الرحمن: "دور المرأة اليمنية في التنمية الريفية"، الدراسات الاجتماعية، العدد الثامن١٩٩٩، جامعة العلوم والتكنولوجيا.

٣- الباز ،شهيدة: سياسة إستراتيجية النوع في مجال الزراعة والأمن الغذائي، يوليو ١٩٩٨.

٤- تقرير التنمية البشرية، اليمن ، وزارة التخطيط والتنمية، ,١٩٩٨

٥- غانم أحمد، عبد الرحمن: "دور المرأة اليمنية في التنمية الريفية"، الدراسات الاجتماعية، العدد الثامن١٩٩٩، جامعة العلوم والتكنولوجيا.

٦- المحفدي، أفراح: ، "المرأة ودورها في حماية البيئة وتحسينها"، ورقة عمل قدمت إلى ورشة العمل التدريبية، صنعاء، وزارة الزراعة، الإدارة العامة لتنمية المرأة الريفية، مايو ٢٠٠٠.

٧- الصلاحي ، فؤاد: ملخص دراسة بعنوان: "أوضاع المرأة الريفية وقضايا النوع الاجتماعي"، دراسة ميدانية تحليلية، صنعاء، المؤتمر الوطني الثاني للمرأة "المرأة شريك أساسي في التنمية"، ٨-١٠ مارس ٢٠٠٣".

٨ - الصياد، أحمد: المرأة اليمنية وتحديات العصر، ط١ ، دار المدى ، ١٩٩٥، ص ,٤٣

٩- اكريون، آن ماري ، كاترين بيجفيلد: دور المرأة في الثروة الزراعية والحيوانية في ج.ي.، منظمة أوكسفام، كانون الأول، ديسمبر ، ١٩٩٥.

٩- سنتيامنتي: النساء والتنمية بالجمهورية العربية اليمنية، صنعاء، المجموعة الاستشارية للجهاز المركزي، ابريل١٩٨٣.

١٠- سنتيامينتي: المرأة والعمل والسكان والتنمية في الجمهورية اليمنية، صورة المرأة اليمنية في الدراسات الغربية، المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، سلسلة دراسات، ترجمة أحمد جرادات.

١١- المؤتمر الوطني الأول للسياسات السكانية في الجمهورية اليمنية.

١٢ – السوسوة،أمة العليم: "إدماج المرأة في التنمية"، ورقة عمل، صنعاء، المركز اليمني للدراسات الاجتماعية وبحوث العمل، مارس١٩٩٧.

١٣- الأخفش ،أروى محمد علي: عمل وإنتاج المرأة غير المنظور وعلاقته بدورها ومكانتها في المجتمع(دراسة تطبيقية مقارنة بين الريف والحضر)، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، قسم علم الاجتماع، ، ٢٠٠٢,

١٤- الجهاز المركزي للإحصاء: التعداد العام للسكان والمساكن ٢٠٠٣.